الفصل العاشر

الفضـــيلة

الفضـيلة هى الخُلُق الطيب ، والخلق هو " عادة الإرادة " فإذا اعتادت الإرادة شيئا طيبا سميت هذه الصفة فضيلة ، والإنسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذى اعتاد أن يختار أن يعمل وفق ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحا ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمـل خارجى ، وعلى هذا يقال : فلان أدّى الواجب ولا يقال : أدّى الفضيلة بل حاز الفضـــيلة .

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه فيقال : "فضائل الأعمال" وليس يُعْنى بها كل عمل أخلاقى بل الأعمال العظيمة التى يستحق فاعلها الثناء الجزيل ، فلا نسمى دفع ثمن ما اشتُرِى فضيلة ، إنما يسمى الإتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق فى سبيله فضـيلة ، ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فإنها مأخوذة من الفضل وهو الزيادة — وعلى هـذا المعنى تكون "الفضـيلة" أخص من "الواجب" .

اختلاف الفضائل — تختلف قيمة الفضائل فى الأمم اختلافا كبيرا ، فلو أنا وضعنا لأمة قائمة تتضمن الفضائل مرتبة حسب أهميتها لها لوجدناها تخالف ما يجب أن يوضع لأمة أخرى ، ذلك لأن ترتيب الفضائل فى كل أمة يجب أن يتبع مركزها الاجتماعى وظروفها المحيطة بها ، وما يفشو فيها من أمراض أخلاقية ، وما اعتورها من أشكال حكومات ونحو ذلك ، فترتيب الفضائل فى الأمة المحكومة غيره فى الأمة الحاكمة ، وفى الأمة الآخذة بحظّ وافر من المدنية غيره فى الأمة البدوية ، وفى الأمة البحرية غيره فى الأمة ساكنة الصحراء وهكذا ، فالأمة المهدّدة بالحروب ترى الشجاعة أهمّ فضيلة ، والأمة الآمنة المطمئنة ترى العدل خير فضيلة ، والأمة التى تحيا على الصناعة ترى الأمانة والاستقامة عماد الفضائل ، وهكذا .

ويختلف أيضا مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ، فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه فى العصور الحديثة ، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر على تحمل الآلام الجسمية ، واليوم نفهم منها ماهو أعمّ من ذلك ، حتى إنها تشمل تعبير الانسان عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطوّر مفهومه تطوّرات عدّة حسب تطوّر الأمم فى حالتها العقلية والاجتماعية ،

والإحسان الى الفرد بالتصدق عليه قد كان يعد من أهم الفضائل فى القرون الوسطى حتى وُضع موضع النقد فى العصور الحديثة ، واعترض عليه بأنه لا يميز فيه بين المستحق للإحسان وغير المستحق تمييزا يوثق به ، وبأنه يشل المحسَن اليهم ، ويقعد بهم عن العمل ويميت ما فى نفوسهم من شرف وإباء ، واستحسن المحدثون إنشاء جمعيات للإحسان تحسن اليها الأفراد وهى التى تتولى الإنفاق على المُعْوِزين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم ، ولا تكتفى هذه الجمعيات بإعطاء المال الى المحتاجين ، بل توجد عملا لمن لا عمل له ، وتنقذ أولاد البائسين من آبائهم حتى لا ينشؤا نشأتهم ولا يصابوا بمرضهم ، فتنشئ المدارس الصناعية ، وتعلمهم علما عمليا يكتسبون منه أقواتهم ، وقد اهتم كثير من الأمم المدنة بإنشاء هذه الجمعيات ، وحرّمت إحسان الفرد للفرد ، وحَضّت على إحسان الفرد للجمعيات .

وهكذا الشأن فى كثير من الفضائل ، قد هذبها رقى العقل وتقدم المدنية .

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الأفراد وأعمالهم ، ففضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الأهمية بالدرجة التى لها بالنسبة للغنى ، ولا الفضائل التى فى الدرجة الأولى للسن هى بعينها

الفضائل التى فى الدرجة الأولى للشاب، ولا فضائل المرأة مرتبة ترتيب فضائل الرجل، ولا فضائل التاجر هى نفسها فضائل العالم وهكذا — ومن الصعب على الأخلاقىّ التعمق فى التفصـيلات، وبيان الاختلافات الدقيقة بين الأشخاص التى يترتب عليها اختلاف فى قيمة الفضائل .

وكل الذى نستطيع أن نقوله إن الناس جميعا — مهما اختلفوا — مطالبون بفضائل عامة من صدق وعدل ونحوهما يجب أن يتصفوا بها، وأنهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون فى شىء واحد، وهو أن كلا منهم مطالب أن يضع فى الدرجة الأولى من الأخلاق ما يناسب حالته ويتفق مع مركزه الاجتماعىّ وعمله الذى يؤديه، وان اختلف تطبيق ذلك .

أقسام الفضيلة — بعض الفضائل يمكن أن تدخل فى فضائل أشمل منها، كالأمانة، فإنها تدخل فى مفهوم العـدل . وكالقناعة فإنها تدخل تحت العفـة، وبعض الفضائل يكون مولّدا من فضيلتين أو أكثر، كالصبر فإنه ينتج من العفـة والشجاعة، وكالحذر، من العفة والحكمة، فما أصول الفضائل التى هى أساس لغيرها ؟

[قد ذهب «سقراط»(١) الى أنه « لا فضيلة إلا المعرفة » يرى بذلك أن معـرفة الانسان الخـير والشرّ تكفى وحدها لعمل الخير وتجنب الشرّ ، و إقدامُ الانسان على الشرّ ليس له من سبب إلا الجهل بنتائجه ، ألا ترى الانسان اذا رأى سبعا ضاريا لا يقدم على عرينه ، واذا رأى هوّة سحيقة لا يتردّى فيها وهكذا ، فلو علم الإنسان نتائج الشرّ علما جازما صحيحا لم يُقدِم عليه ، فكل الشرور ناشئة من الجهل ، ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما ، وعلل ذلك بأن كل إنسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه و يكره لها الشرّ ، فمحال أن يفعل ما يضرّها وهو عالم بضرره ، فما يصدر عن إنسان من الخطأ إنما منشؤه الجهل بما يعقب العمل من نتائج أو الشك فيها ، وعلاج الشرّ يرأن يُعلَّم نتائج الأعمال السيئة التى تصدر عنه علما صحيحا ، ولتعويد إنسان الخير وجعله مصدرا للفضيلة يُعلَّم نتائج الأعمال الحسنة .

وهـذا خطأ واضح فكثيرا ما نَعلم الخير ونتجنبه ، ونعلم الشر ونأتيه ، فمعرفة الخير ليست كافية فى الحمل على فعله ، بل لا بدّ أن ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم .

(١) سقراط فيلسوف يونانى شهير وهو أستاذ أفلاطون عاش من (سنة ٤٦٩ — ٣٩٩) قبل الميلاد ، وهو يعدّ مؤسس علم الأخلاق ، لأنه أوّل من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس علمى .

وعلى رأى « سقراط » ليست هناك فى الحقيقة إلا فضيلة واحدة وهى «المعرفة» ، وان شئت فسمها «الحكمة» ، وليس غيرها من الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل إلا مظهرا من مظاهرها وصادرا عنها .

ورأى «أفلاطون»[1] أن فى الانسان قُوًى ثلاثا اذا اعتدلت نشأت عنها الفضائل، وهذه القوى هى : القوة العاقلة، وهذه اذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الحكمة ، والقوة الغضبية ، وهى اذا اعتدلت نشأ عنها الشجاعة ، والقوة الشهوية أو البهيمية وهى اذا اعتدلت نشأ عنها العفة : وهذه الفضائل الثلاث باعتدالها جميعا ينشأ عنها العدل، فالعدل تتصف به النفس عند أداء هذه القوى الثلاث وظائفها باعتدال ، وعند ماتكون متساندة بحيث تتعاون كل قوة مع أخرى . فأصول الفضائل عنده أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .

---

(١) أفلاطون فيلسوف يونانى عاش من سنة (٤٢٧ - ٣٢٧) قبل الميلاد وهو أستاذ أرسطو ومن أكبر من كتب فى الأخلاق .

أما « أرسطو »[١] فكان يذهب الى أن أساس الفضائل « خضوع الشهوات لحكم العقل » وبعبارة أخرى « تسليم زمام الشهوات للعقل يقودها » وهناك طرفان ينبغى تجنبهما ، الطرف الأول محاولة استئصال الشهوات ، والطرف الثانى إرخاء العنان لها والانهماك فيها ، انما الفضيلة الاعتدال ، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

وقد جر هذا القول «أرسطو» الى وضع «نظرية الأوساط» أى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، الافراط والتفريط ، فالشجاعة وسط بين التهوّر والجبن ، والكرم وسط بين الشرف والبخل ، والعفة بين الفجور والخمود الخ . وهناك فضائل لم تضع اللغة أسماء لطرفيها الرذيلين ، ولكن هذا لا ينفى أن الفضيلة فى هذه الحالة أيضا وسط بين رذيلتين .

وقد اعترض على هذه النظرية : بأن هناك كثيرا من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالصدق والعدل ، فليس هناك إلا صدق وكذب ، وظلم وعدل .

---

(١) أرسطو أو أرسطاليس أعظم فلاسفة اليونان عاش من سنة (٣٨٤ – ٣٢٢) ق م ويلقب بالمعلم الأول ، لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه الاسكندر المقدونى فعلمه ثلاث سنين ، وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة .

و بأن بعض الفضائل ليس فى وسط الرذيلتين، فإن الشجاعة ليست على بعدين متساويين من التهوّر والجبن، بل هى أقرب الى التهوّر، وكذلك الكرم أقرب الى الإسراف منه الى البخل] .

وآتبع بعض المحدثين طريقة أخرى فى تقسيم الفضائل ، فقالوا : إن الفضائل إما فضائل شخصية ، كضبط النفس وتهذيبها، و إما فضائل اجتماعية كالعدل، فالفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد، وتجعل ملكاته وقواه فى حالة تعادل ورقى، وأما الفضائل الاجتماعية فهى الفضائل التى تجعل الإنسان فى وفاق مع من حوله من الناس وترقى شئونهم، نعم ان النوعين من الفضائل يتوقف كل منهما على الآخر، فإنه اذا انعدمت الفضائل الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للمجتمع، ولا سيره فى طريق رقيه، ولا إيصال الحقوق للناس ، و إذا انعدمت الفضائل الاجتماعية ساءت أخلاق الفرد، ولم يستطع أن يرقى نفسه ترقية تامة، ولكن يمكن التميز بين النوعين بسهولة .

طرق غرس الفضائل — للفضائل وسائل مختلفة تعين على غرسها، نذكر هنا أهمها .

(١) فأول ذلك تكوين العادات الصالحة فى الطفل منذ صغره، وذلك عمل الآباء فى بيوتهم، والمدرسين فى المدارس، وخصوصا المدارس الأولى، فهم بإلزامهم الطفل أن يكرر عملا صالحا يصبح عادة له، كتعويده النظافة وقول الصدق والطاعة ونحو ذلك، واذا تأصلت هذه العادات أصبح لها من السلطان عليه ما يقرب من الطبيعة التى خلق عليها الإنسان، ولذلك قالوا: « العادة طبيعة ثانية » وبعد أن ينشأ الناشئ وينمو عقله يصبح تكوين العادات الصالحة موكولا اليه هو، وهو المكلف بها والمسئول عنها، فاذا عُنِي بنا آباؤنا ومربونا فى صغرنا، وعُنينا بأنفسنا فى شبابنا بتكوين العادات الصالحة عنيت هذه العادات بنا فى بقية حياتنا، وجنينا من ورائها ربحا عظيما، فنحن كالمصوّر يعمل صورة من جبس لين لا يلبث بعدُ أن يتصلب، فإن آعتنى بالصورة وجمّلها كانت — مدّة بقائها — زينة تسرّ الناظرين، وان لم يعن بها وخرجت مشوّهة جمدت على شكلها وكانت غصة للرائين .

والإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشى على الأرض، فطريقته فى معيشته تعتمد على عاداته، بل هو سعيد أوشقىّ بالعادة، أمين أوخائن بالعادة، شجاع أو جبان بالعادة، فاذا عُنِي بنا فى صغرنا ربحنا كثيرا فى حياتنا .

(٢) ومما يعين على غرس الفضائل «القدوة الصالحة» ، لأنها تثير الشعور، وتحيي الضمير ، وتكون القدوة بأمور :

(أ) الصداقة، فالإنسان يقترب جدّ القرب من أخلاق من يصادق، وكما قال بعضهم : «خبّرنى من تصادق أخبرك من أنت» وتقليد الصديق لصديقه ظاهر فى نواح مختلفة — فى القول — فنحن نبدأ نتكلم بالألفاظ التى يتكلم بها الصديق، فإن كانت سيئة بذيئة شعرنا فى أول الأمر بكراهيتها والاشمئزاز منها، ثم نتعود سماعها بتكررها على آذاننا، ولا نشعر بما كنا نشعر به من اشمئزاز، ثم لا نلبث أن ننطق بها كما ينطق صديقنا، كذلك — فى الفعل — فنحن نعمل أعمال أصدقائنا بحكم ما فينا من ميل الى التقليد، ننسخها كما ننسخ صفحة أمامنا، بل نحن نقلد أصدقاءنا فى كثير من أعمالهم من غير شعورنا، فالكلمات التى نسمعها منهم والأعمال التى تصدر عنهم تُحْفَظُ فى أذهاننا، ثم تبعثنا على العمل على وفقها ولو لم نتعمد ذلك .

والصديق يؤثر فى صديقه خيرا كان أو شرا، فالصديق السيئ ينضح أفكارا سيئة وأقوالا سيئة وذوقا سيئا يتشرّبها صديقه، والصديق الصالح ينضح أفكارا صالحة وأقوالا نقية وذوقا طاهرا يتأثر بها صديقه .

كل هذا يوجب علينا أن نعنى كلّ العناية بتخير الأصدقاء ، وأن نفرّ من الصديق السيئ كما نفرّ من المحموم خشية العدوى ، ونعدّه خطرا يتهدّد أخلاقنا ، نهرب من مجلسه ، ونهرب من سماع قوله ، ونهرب من رؤية عمله ، لأن الشرّ الذى يصدر منه يعلق بنا .

(ب) كذلك — من القدوة الصالحة التى تعين على الفضيلة سيَر الأبطال ورجال الأخلاق ، فالقراءة فى كتب تراجم العظماء وقصصهم وأعمالهم فى حياتهم يودع فى أذهاننا ذخيرة نقلدها فى أعمالنا ، وكما أن كثيرين ممن أجرموا كان سبب إجرامهم قراءة رواية لص أو مشهد سينما أو نحو ذلك ، كذلك كثير من العظماء إنما كانوا عظماء برؤيتهم القدوة الصالحة وتتبعهم لسيرة بطل رأوه أقرب الى نفوسهم ، فعرفوا تفاصيل حياته ، فكانت منبعا لعظمتهم .

الحياة الأخلاقية حياة تأثر وتأثير ، فكل إنسان يتأثر بمن حوله ويؤثر فيمن حوله ، كالشىء الحارّ والبارد ، فإنهما اذا تلامسا اكتسب الحارّ برودة والبارد حرارة ، فيجب أن نُعنَى بهاتين الناحيتين ، فمن ناحية التأثر يجب ألا نختلط إلا بمن يفيدنا التأثر بهم ، ومن ناحية التأثير يجب أن نكون قدوة صالحة لأصدقائنا والذين يعاملوننا ، ونعلم أن عملنا الشرّ ليس مقصورا علينا ، بل سيسهل

لآخرين أن يعملوا الشرّ مثلنا ، وأن يكون مثلنا الأعلى أن لو عرضت حياتنا بجميع دخائلها لم يجد الناس فيها إلا خيرا يُحتَذَى .

(٣) كذلك مما يعين على غرس الفضائل دراسة علم الأخلاق ، فكل علم يمنح دارسه عينا ناقدة فى دائرة الأشياء التى يبحث عنها ، وكذلك الشأن فى علم الأخلاق ، فدارسه أقدر على نقد الأعمال التى تعرض عليه وتقويمها تقويما مستقلا غير خاضع الى إلف الناس وتقاليدهم ، بل هو يستمد آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه ، وهذا يعينه على أن يكون فاضلا .

وكثير من العلوم كالرياضة والطبيعة وتقويم البلدان الغرض منها مقصور على معرفة نظرياتها وقواعدها ، أما علم الأخلاق فله غرض أسمى وهو التأثير فى ارادتنا وهدايتها ، وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة ، ونحصل خيرنا وكمالنا ، ومنفعة الناس وخيرهم ، فهو ينير السبيل أمام الارادة ، ويشجعها على عمل الخير ويثبطها عن فعل الشر .

فعلم الأخلاق لايفيدنا ما لم تكن لنا ارادة تنفذ أوامره وتجتنبنا نواهيه .

* * *

عادات صالحة نعتادها من صغرنا . وقدوة حسنة تحيي ضمائرنا ، من أصدقاء منتقين ، وكتب مختارة تشرح سِيَر الأبطال وعمل الصالحين ، ودراسة لعلم الأخلاق تشحذ ذهننا لمعرفة الخير والشر ، وتستحث ارادتنا للعمل على وفقه ، كل هذه أكبر ما يعين على غرس الفضائل فى النفوس .

ولسنا نستطيع عد الفضائل جميعها ، والكلام على كل منها تفصيلا ، لذلك نختار بعض الفضائل الهامة ونشرحها .

الصـــــدق

هو أن يخبر الانسان بما يعتقد أنه الحق، وليس الاخبار مقصورا على القول ، بل قد يكون بالفعل ، كالإشارة باليـد وهزّ الرأس ونحوهما، وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل، فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنّب على ارتكابها ثم سكت فقد كذَب ، ومن الكذب المبالغة فى القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة، كما إذا بالغ إنسان فى وصف شيء بالعظم أوالكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته .

ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها اذا كان ذكر ما حذف يجعل لمـا ذكر لونا خاصا .

وهناك طريقة واحدة للصدق وهو « أن يقول الانسان الحق كل الحق، لا شيء غير الحق » .

وإنمـا كان الصدق فضيلة لأنه أهم الأسس التى تبنى عليهـا المجتمعات، ولولاه ما بقى مجتمع ، ذلك لأنه لا بدّ للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض، ومن غير التفاهم لا يمكن أن

يتعاونوا، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما فى نفسه من الحقائق الى الآخرين، وهذا هو الصدق .

يتجلى لك ذلك فى المجتمعات الصغيرة كالأسرة والمدرسة، فكلاهما لايبقى إلا بالصدق، فلو كذب الطلبة فى كل مايتكلمون، وكذب عليهم مدرسوهم فى كل ما يعلمونهم ويحدثونهم ما بقيت المدرسة، وكذلك البيت — واذا كان المجتمع لا يمكن أن يبقى اذا كان كل مايتكلم فيه كذبا كان من الواضح أن يتضرر بقدر مافيه من الكذب ، فقد يبقى اذا غلب فيه الصدق على الكذب ولكنه يكون فاسدا منحطا .

ويدلك على ضرورة الصدق أن أغلب المعلومات التى وصلت الينا بالسماع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الإنسان فى معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، ولما وصل الينا من العلم إلا شىء قليل ، وهو مايمكننا أن نجربه بأنفسنا، وهو لا يغنى فى الحياة .

ومن أجل هذا عد الصدق أساسا من أسس الفضائل ، وجعل عنوانا لرقى الأمم وانحطاطها .

ومما يشاهد فى شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب عدّة كذبات لتغطيها ، ذلك لأن الكاذب يخلق فى الدنيـا بكذبه ما لم يكن ، يخلق خيـالا لا يتفق مع الواقع ، وقد يضطره هـذا الخيال الذى خلقه أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال ومحال ذلك .

ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن «أرسطو» أنه سئل ماضرر الكذب قال : (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل إنسان فى هـذه الدنيا فى حاجة شديدة الى ثقة الناس به سواء كان تاجرا أو طبيبا أو مدرسا أو محترفا حرفة ، فمن فقد ثقة الناس به فقد حُرِم خيرا عظيما .

وكما يكذب الانسـان على غيره كصاحبه وأخيـه يكذب على نفسه ، وكثيرا مايكون ذلك ، كمن يحاول أن يقنع نفســه بأنه بذل ما فى وسعه لأداء مايجب عليـه ، وهو فى الحقيقة لم يفعل ذلك ، وكما يحصل كثيرا من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الأعذار عن كسله أو بخله أو قسوته أو جبنه غشا لنفسه وخداعا ، وصرفا لهـا عن الحق ، وقد يغلو المرء فى هـذا الأمر حتى يصـير عادة له ، وحتى لايستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب .

وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لهـا أسماء خاصـة : كالنفاق ، وهو أن يُظهر الانسان غير ما يبطن، اشتقته العرب من النَّافِقَاء وهو إحدى جِحَرة اليَرْبُوع ، يخفيها و يظهر غيرها ليلجأ اليها عنـد الحاجة، ومن هذا سمى الرجل الذى يظهر الإيمـان و يبطن الكفر منافقا ، فهو كذب عملىّ، ومن هذا النوع أيضا من يظهر الصـداقة و يبطن العِداء ، وكل من يظهر بمظهر ينافى حقيقتـه منافق مذموم .

وكالملق أو التملق وهو أن تمدح آخر بمـا لا تعتقده فيه لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تنال منه منفعة أو نحو ذلك .

وضـدّ النفاق والملق الصراحة ، وهى أن نفتح قلوبنـا لمن نخاطبهم ، وأن نصـدق فى التعبير عمـا تكنه ضمائرنا — والكلمة مأخوذة من قولهم : «لبن صريح» إذا ذهبت رغوته وكان خالصا ، فالصريح من الناس من يخلص من الغش و يظهر لمن يحدّثه حقيقة ما فى نفسه .

وقد يخطئ قوم فى فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضى أن يقول الإنسان كل حق لكل إنسان . وهذا ليس بصحيح، فهناك مجال للقول ومجال للسكوت . وليس من الصراحة أن تجرح

إحساس النـاس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو الى ذلك ، أو أن يحدّث الطبيب الناس بأمراض من يعالجهم من الأسر اذا كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما أنه ليس من الصراحة أن تفخر بأعمالك ، أو تفشي ماتعرفه من أسرار نفسك أو بيتك ، أو جيرانك أو أصدقائك ، ولو كان ما تحدّث به حقا ، و إنما الصراحة ألّا تقول — اذا قلت — إلا الحق ، ولكن لاتقوله إلا لمن له الحق أن يعرفه .

ومن ضروب الكذب الممقوت «خلف الوعد» فمن وعد آخر وعدا وفى نيتـه عند وعده ألا يفى فقـد كذب . وكذلك من كان فى نيته الوفاء ثم أخلف لا لعـذر أو لعذر يستطيع التغلب عليـه ، فى خلف الوعد إضرار بالموعود كاضاعة وقته أو إيجاد أمل كاذب عنده أو نحو ذلك — والوعد دَيْن ، فكما يجب وفاء الديون يجب وفاء الوعود ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لايَعِد الإنسان وعدا إلا وفى .

ولا يحق لإنسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب الكذب ، بل ينبغى أن يلتزم الصدق فى جميع أقواله وأعماله — ولسنا ننكر أن التزام الإنسان الصدق فى كل ما يقول و يفعل يستلزم مشقة كبيرة ، ويحتاج الى عناء ورياضة نفس وصبر وشجاعة ، ذلك لأنه قد يعرض للإنسان فى حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار

النظر أن الكذب أنفع، وأنه لا مفر منه ، ونحن نورد لك أمثلة من أقواها ونبين حجتهم فى الكذب ثم نبين وجه الخطأ فيها .

(١) ناشئ ابتدأ يتعلم فن الشعر عرض عليك قصيدة له لم تستحسنها . فهل تصدق وتقول : إنها قصيدة سقيمة المعانى، ظاهر فيها التكلف سخيفة النسج، وحينئذ تكون قد آلمته وجَبَّهته، وقد يكون قولك سببا فى تركه الشعر مع أنه لو شُجع لصار شاعرا مجيدا، أو خير أن تكذب وتقول : إنها قصيدة جميلة فتدخل على قلبه السرور، وتشجعه على السير فى طريقه حتى يبلغ غايته .

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب، فان المسئول اذا كان لا يجيد الشعر ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق : " لست من الشعر بالمنزلة التى تخوّل لى الحكم " فإن كان يجيد أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ما هو حسن فى نظره، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده، ويرشده الى طريقة التخلص من عيوبه، فهذا صدق لا يؤلم، وفيه من الفائدة ما ليس للمدح الصرف الكاذب، إنما يؤلم النفس احتقار الشيء جملة، وأن يقال الصدق بخشونة وفظاظة ، أما النقد المؤدب فأشهى الى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوّق .

(٢) الكذب فى الحروب ، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للايقاع بهـا ، كأن تقول : إنها ستهاجمها من جهـة لاتريدها ، أو تشرع بالفعل فى الهجوم من ناحية وفى عزمها الهجوم من ناحية أخرى ، تريد بذلك التعمية عليها ، فهل يصح أن نلزمها الصدق فنضيع عليها النصر مع أن الحرب خُدَعة ؟

والجواب أن الكذب فى الحروب ليس كذبا فى الحقيقة ، لأن الأمة باعلانها الحرب على أمة أخرى قـد أعلنتها بألّا تفاهم بينهما ، وحيث لا تفاهم لا كذب ، لأن معنى إعلانها الحرب أنها ستفعل معها ما تستطيع من الإيقاع بها ولو بالخديعة ، فمثلها مثل من قال لآخر : " سأقص عليك خبرا كاذبا " ثم قصه عليـه ، فليس هذا بكذب لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فان اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه .

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيرا ، يكون لأمّ ولد مرض بالسل مثلا ، وهى التى تمرضه وتعنى بشئونه ، وكان قد مرض لها ولد من قبل بذلك المرض ومات ، استدعت الطبيب ففحصه وعرف مرضـه فسألته : هل هو مصاب بالسّل ؟ سألتـه وهى مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم ، أفليس من الحكمة أن

يقول الطبيب : إنها "نزلة شعبية" حتى تستردّ قوتها وتعنى بالولد. وهو أشدّ ما يكون حاجة الى عنايتها. أو يقول الحق فتفقد قواها، وترتبـك فى تمريض ابنها ، فيثقـل المرض عليـه ويسرع ذلك الى موته ؟

والجواب أن الناظر اذا قصر نظره على هذه الحـادثة فى وقتها رأى أن الكذب قد يكون واجبا، ولكنه إذا وسّع نظره رأى أن الأم ستعلم أن مرض الولد كان السـل لا النزلة الشـعبية ، وأن الطبيب قد كذب عليها رحمة بهـا، وسيعلم الناس ذلك فلا يثقون بقوله مهما أكد لهم عن المرض، ولو علم الناس أن الأطباء جميعا يتبعون هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهـذا الكذب قد أضاع معانى اللغة ، وأزال الثقة بين الناس ، وينبغى للانسان عند الحكم على شىء أن يوسع نظره ليرى مايترتب عليه من الاضرار فى المستقبل القريب والبعيد .

ومع هذا فانا نوجب على الطبيب أن يتخير الألفاظ التى يستعملها لأداء الخبر . وأن يفتح على المريض وأهـله باب الأمل بالقـدر الذى يعتقد، ولكن لا يحيد عن الصدق .

على أنه اذا كان الصدق قد يُودِى بحياة بعض الأفراد، والكذب ينجيهم، — وإن كنا لم نعثر فى حياتنا اليومية على شىء من هذا — فلِمَ لا نضحى بهـذه الأنفس القليلة فى سبيل الحق، وفى سبيل المحافظة على معانى اللغة، وثقة النـاس بعضهم ببعض، وهى كلها ركن عظيم من أركان العمران؟ إذا كان من الصواب أن نضحى بآلاف النفوس للمحافظة على مملكة أفلا يكون من الحق أن نضحى بنفوس معدودة، ونحتمل أضرارا محدودة، للمحافظة على الحق؟

فلندع هـذا النوع من الجدل؛ ولنلزم أنفسنا بقول الحق، كل الحق، فى كل حال.

الشـــجاعة

الشجاعة هى مواجهة الآلام أو الخطر عند الحاجة فى ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذى يرى التائج و يخاف من وقوعها ثم يواجهها فى ثبات رجل شجاع ، وما دام الإنسان يعمل فى موقفه خير ما يعمل فهو شجاع ، فالقائد الذى يقف فى خط النار فيرتعش ، ويخاف أن ينزل به الموت ، ثم يضبط نفسه ، و يؤدّى عمله كما ينبغى قائد شجاع ، بل هو شجاع أيضا اذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر ، وأن الواجب يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لاخطر ، فإن هو أضاع فى موقفه رشده ، أو ترك موقفا يجب أن يقفه ، أو فر بجنوده من خطر كان عليه أن يواجهه ، فهو جبان .

فليست الشجاعة تعتمد على الإقدام والإحجام ، ولا على الخوف وعدمه ، إنما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغى ، فإن ضبط الشخص نفسه ، وعمل ما يجب أن يُعمَل فى مثل موقفه رغم خطرٍ أمامه ، ورغم ما يشعر به من خوف ، فهو شجاع ، وإلا فلا .

وليس بالمحمود أن يتجرد الانسان من كل خوف، فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند إمضاء عقد سياسيّ مثلا أو إنهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمله على الروية حتى يختمر رأيه ، وفضيلةٌ أن يخاف الإنسان من ثلم عرضه وشرفه ، فليس بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهارا ، أو يقامر على ملأ من الناس غير هيّاب ولا وجل، فذلك ضعف فى الشعور لا شجاعة .

إنما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الإنسان فى الخوف، أو يهوّل فى الشيء المخوف، فمثلا كل إنسان عرضة لكَلْب كَلِب يعضه ، أو سلك ترام يصعقه ، أو سيارة أو قطار يدهمه، أو نار تشب فى بيته، أو مكروه ينال منه، كل هذه الأشياء تخيف ، ولكن الجبان يبالغ فى الخوف منها، ويخشى جدّ الخشية من وقوعها، ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركبا — مثلا — خوف أن يغرق به، ولا يرحل عن وطنه اذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ، ولكن الشجاع لا يفكر كثيرا فى احتمال الشر، ثم اذا وقع لم يَطِرْ قلبه شَعَاعًا، بل يصبر له ، ويتحمله فى ثبات ، إن مرض لا يضاعف مرضه بوَهمه ، واذا نزل به مكروه قابله بجأش رابط تخفف من شدّته .

وعلى الجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذى لايخاف مما ينبغى أن يخاف منه ، ولا بالجبان الذى يخاف مما لا يخاف منه .

وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب ، بل إن كثيرا من الأعمال اليومية يحتاج الى شجاعة لاتقل عن شجاعة الجنود ، فرجال المطافئ ، والأطباء ، وعمال المناجم ، وصيادو الأسماك فى البحار عند اشـتداد الرياح وتلاطم الأمواج ، والممرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية ، وربانو السـفن التجارية ، كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود ، ويقابلون الشدائد فى صبر وثبات .

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشـدائد ، فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده ، بل يقابله برزانة وثبات ، ويتصرف فيه بذهن حاضر ، وعقل غير مشتت ، قد يرى إنسان نارا تلتهـم بيته ، أو لصا يغشى منزله ، أو قطارا يكاد يهشم رجلا ، أو سفينة أشرفت على الغرق ، فإن فقـد رشده ، وأضاع صوابه ، وحار طرفه ، ودله عقله ، ولم يدر ماذا يفعل ، كان جبانا . وإن هو ملك نفسه ، وثبت قلبه ، وتصرف فى الأمر على أحسن وجه ، كان شجاعا حقا . كالذى حكى عن عبـد الملك بن مروان

أنه أتاه فى يوم واحد خبر مقتل ابن زياد ؛ وهزيمة جيشه ، ودخول ابن الزبير فلسطين ، وثوران ثورة فى دمشق ، ومسير ملك الروم الى الشام ، فما تزعزع ولا طاش ، وقد رؤى فى هذا اليوم ثابت الجنان ، غير مقطب الوجه ، ثم شغل ملك الروم بمال يؤدّيه اليه ، ووجّه جيشا الى فلسطين فاستردّها ، وسار الى دمشق فأسكن فتنتها .

الشجاعة الأدبية — لما تقدم الناس فى المدنية لم يكونوا فى حاجة كبرى الى الشجاعة البدنية كما كانوا يحتاجون إليها أيام بداوتهم ، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الأدبية ، يعنون بها أن يبدى الإنسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به ، أو تقوّلوا عليه ، ومهما جرّ ذلك عليه من غضب عظيم ، لا يخاف من تحمل ألم يصيبه فى سبيل قول حق يقوله ، أو مبدأ هام ينشره ، فلو رأى فى مسألة غير ما يراه علماء وقته أو من حوله من الناس ، أو خالف حاكما أو عظيما ، جاهر برأيه غاضا عما يناله من الأذى ، يقول الحق بأدب وإن تألم منه الناس ، ويعترف بالخطأ وإن نالته عقوبة ، ويرفض العمل بما لا يراه صوابا ولو لم يقع رفضه موقعا حسنا .

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل قول الحق ونصرته ، وصبروا على الآلام عشقا للحق وهُيَاما به ، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم ، ومنهم الأنبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ العلماء ، فقد أُوذُوا فى الحق فتحملوا الأذى ، و باعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له ، كالذى حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء إليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك فيه ما تركته » .

ومن هؤلاء «سقراط» الفيلسوف اليونانى ، فقد علّم شبان أثينا ما وصل إليه علمه ، وبذل جهده فى تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم ، فلما بلغ سنّ السبعين اتهم بأنه يجحد آلهة اليونان ، و يضلل الشبان ، فحكم عليه بالإعدام ، وكان فى استطاعته أن ينجو بنفسه اذا هو تعهد أن ينقطع عن التعليم ، ولكنه أصرّ على قول الحق وأضاع نفسه .

وفى تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك "فابن رشد" الفيلسوف الشهير المتوفى فى سنة ٥٩٥ هـ اضْطُهد من أجل اشتغاله بالفلسفة ، وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله .

" وابن تَيْمِيَة " أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ أداه اجتهاده الى مخالفة فقهاء عصره فى بعض المسائل فوشوا به الى السلطان فسجنه ، فظل يكتب الرسائل فى سجنه يؤيد بها مذهبه ، ويدحض بها حجج معارضيه .

وفى العصور الحديثة لولا أن قوما من العلماء ضحوا كثيرا فى قول الحق ما تقدم العلم والمدنية الى الحد الذى نراه " لجاليليو " الفلكى الايطالى (١٥٦٤ — ١٦٤٣ م) اخترع التلسكوب فرأى به أن المجرة ليست إلا نجوما كثيرة ، وأن فى القمر جبالا وأودية كالتى فى الأرض ، ورأى به كلف الشمس ، وكان يُعلّم أن الأرض تدور حول الشمس مخالفا لتعاليم " بَطْلَيْمُوس " القائلة بأن الأرض هى مركز الكون ، فاضطهده من أجل ذلك بعض القسيسين ، وأمروه بالكف عن تعاليمه ، فلم يستطع الصبر عن الحق ، فأُخذ وسُجن وعُذب كثيرا من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم .

" ودَارْوِن " الفيلسوف الانجليزى (١٨٠٩ — ١٨٨٢م) لم يعذَّب كما عُذب مَنْ قبله بسجن أو نفى أو قتل ، ولكنه عُذب بالانتقاد المر من رجال عصره فتحمله ، وأبان الطريقة التى اتبعها النبات والحيوان فى نشوئه وارتقائه ، ولم يقعد به ضعف صحته عن

البحث وراء الحقيقة ، فكان على الرغم من مرضه وألمه يُجرى التجارب و يجتهد أن يتعلم دائما أشياء جديدة عن الدنيا التى يعيش فيها ، "وكامبانلا" الفيلسوف الايطالى — (١٥٦٨ — ١٦٣٩م) قد أغضب بعض القسيسين والأمراء بتعاليمه الجديدة ، فقد كان يقول : إننا نستطيع أن نتعلم من امتحان الأشياء التى حولنا كالأشجار والأزهار والجبال والأنهار أكثر مما نتعلمه من كتب الفلاسفة القدماء أمثال " أرسطو" وكان يقول : إن هناك نظاما للحكم خيرا من النظام الحاضر لا يستبدّ فيه الحكام بالشّعب ، وقد سجن من أجل أقواله هذه ، وعذب عذابا شديدا ، واستمر فى الحبس خمسا وعشرين سنة ، ثم أفرج عنه .

فواجب أن نقف بازاء الحق نصرح به وندافع عنه ونعشقه ، ونتحمل الآلام فى سبيله ، ونتخذ مَنْ ذكرنا مثلا صالحا فى حياتنا .

ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته و راحته ، و يتحمل الآلام ، لخير النـاس و إسعادهم ، كمن يرى مرضا اجتماعيا فى أمته فيخصص حياته لدراسته ومعرفة أسبابه ، ثم يتحمل المتاعب فى سبيل إصلاحه ، وكأن يرى الأطفال الذين لم يتجاوزوا العـاشرة يعملون فى المعامل ساعات طو يلة فى أما كن غير صحية بأجر قليل ، لا يرحمهم

ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورءوس الأموال، فيشبون ضعفاء جهلاء يقسون على من دونهم كما قُسِي عليهم، أو يرى أولاد الشوارع ينشئون ولا علم ولا عمل فيكونون بعدُ مجرمين يعيشون بالأمن ويعثون فى الأرض فسادا، أو يرى فقراء يألمون فى الحياة آلاما جسيمة يقضون أطول زمن فى العمل وينالون أقل أجر، تشتد مزاحمتهم على العمل، ويخضعون لنُظُم شاقة، يسكنون مساكن غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة باهظة اذا قيست بمساكن الأوساط والأغنياء، أثمان طعامهم ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه الأغنياء لأنهم مضطرون الى شراء كميات قليلة فى أوقات يقل فيها الصنف، تكثر بينهم الأمراض والوفيات، ويشتد بهم الضيق بمجرد قعودهم عن العمل لأنهم لم يستطيعوا أن يوفروا شيئا من أجورهم وقت عملهم، بيوتهم وحاراتهم تشمئز منها النفس قذارة، اضطرهم الفقر الى الازدحام فى الحجرة الواحدة مع ما يفشو فيهم من الأمراض، تنشأ بينهم أبناؤهم وبناتهم فيجدون حولهم جوّا خانقا من سكر وعربدة وتسوّل ومسكنة وكذب جرّ اليها الفقر وسوء الحال، فيخضعون لذلك مضطرين، ويسيرون سير آبائهم وهم فى ذلك مجبرون لا مخيرون، فمن رأى شيئا من ذلك أو نحوه من الأمراض تخصص حياته لمعالجته، وضحى بكثير من مصلحته

لمصلحة أمته ، وصبر على ما يناله من الشدائد ، وتغلب على ما يصادفه من العقبات ، كان أشجع من جندى فى خط النار .

علاج الجبن — الشجاعة والجبن ونحوهما من الفضائل والرذائل تعتمد على الوراثة والتربية معا ، فنحن نرث من آبائنا بذور شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربيـة أثرا كبيرا ، فهى اذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة ، وقللت من جبن الجبان ، واذا عولج الجبان علاجا ناجعا فقد يبرأ من مرضه ، وليس للجبن علاج واحد ، بل ينبغى أن يُنظر الى سببه ، ثم يتخذ له العلاج اللائق به ، شأنَ جميـع الأدواء ، فقد يكون سببه الجهل بالشىء ، فالعلاج اذًا العلم به ، كالذى يرى شبحا فى الظلام فيتزعج منـه وترتعد فرائصـه ، فاذا علم أنه حجر أو متاع أَنِس به وزال خوفه ، ومن هـذا النوع أكثر ما يخيف فى الظلام من عفاريت ونحـوها .

ويتصـل بهذا عدم الإلف ، فكثيرا ما يكون سبب الجبن ، فالإنسان اذا لم يأنس بالشىء ويألفه يجبن أمامه ، كالطالب الذى لم يتعوّد الخطابة فاذا هو حاولهـا تهدّج صوته ، وجف ريقه ، وارتعشت أطرافه ، ومن لم يتعوّد غِشـيان المجالس ومخالطة الناس

يخاف منهـــم ويلجئه الجبن الى حب العزلة ، فإن هو اضطر يوما الى الاجتماع بهم علاه الخجل ، واضطربت حركاته ، وزاد ارتباكه ، وثقل على الناس وثقلوا عليه ، وعلاج هذا الإلفُ والتعوّد ، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصـير خطيبا ، والجرأة حتى يصـير جريئـا .

ومـا يفيد فى هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التى تكون إن وقع المكروه ثم يهوّنها على نفسه ، فلو تصوّر أنه خطب فلم يُجِد وانتقده السامعون ثم صغّر هـذه النتيجة وهوّنها تشجع ولم يجبن ، ولو قرر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدّر الموت واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا .

ومن العـلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فإذا ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو تشجع أكبر مما يصل اليه من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة ، فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم فلينظر يَرَ أن من المحتمل أن يصيبه مرض فى رحلته أو يموت فى غربته ، ولكن من المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه ، أو قل علمه وكان جبانا حتما ، فان ذلك النظر قد يحمله على

أن يكون شجاعا، لا سيما إن علم أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ، ويأكل فى اليوم ثلاثا ، إنما الحياة أن يعمل وينفع ، ويستفيد ويفيد .

تذكر وقت جبنك سِيَر الأبطال ، وأكثر من مطالعة تاريخ حياتهم تستشعر الشجاعة، وتمتلئ حماسة، وتحس بقوة تدفعك الى العمل على مثالهم، والسير فى طريقهم .

العفـــــة

الاعتـــدال — ضبط النفس

ضبط النفس — أو العفة بأوسع معانيها — هو اعتدال الميل الى اللذائذ، وخضوعه لحكم العقـل ، وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية ، كالانفعالات والعواطف ، فلا يسمى الشخص «ضابطا لنفسه » إلا اذا اعتدل فى لذاته الجسـمية من مأكل ونحوه ، واعتدل أيضا فى انفعالاته فلم يغضب لأىّ داع ، ولم يندفع فى السير وراء عواطفه ، كأن يَحِنّ حنينا شديدا الى وطنه اذا نزح عنه ، أو يفرط فى حزن لفقد عزيز عليـه ، وكثير من الرذائل يرجع سببه الى عدم القـدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والإسراف والغضب والسخط والثرثرة والإدمان .

تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الإنسان سيد نفسه لا عبدا لشهوات تسيره كما تشاء .

والناس إزاء الملذات أصناف ، فمنهم من ذهب الى الزهد وقمع الشهوات ، وقالوا : ”ان شهوات النفس غير متناهية ، فإذا أعطاها

المراد من شهوات وقتها تعدّتها الى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضى ، وعبد هوى لا ينتهى ، ومن كان بهـذه الحال لم يُرْجَ له صـلاح ، ولم يوجد فيه فضل " — هؤلاء يرون أن أرقى أنواع الحيـاة الأخلاقية محاربة الشهوات ، فلا يتزوجون — مثلا — ولا يأكلون اللحوم ، ولا يمكّنون النفس من مأكل أنيق ، أو مقعد وثير ، أو ملبس جميل ، وقد شنع «سنيكا»[1] على من يشرب المـاء مثلجا فى أيام الحرّ ، وقال : « قد انتزع الترف من القلوب ما كان بها من موارد الشفقة وأسـباب العطف حتى صارت أشـدّ بردا وقسوة من الثلج والجليد » و بالغ بعض الزهاد فلم يكتف بقمع الشهوات بل تعدّاها الى تعـذيب النفس بالقيام فى الشمس فى أشدّ ساعات الحرّ ، والتمرّغ على الرخام فى الشـتاء ، وهكذا ، وهذا مذهبُ أكثر المعتنقين له من الناقمين على الحيـاة ، المتشائمين من كل شىء فى الوجود ، المصـابين بفقر الدم ، الذين ضعفت شهواتهم لضعف جسمهم ، وقد يرى هذا الرأى أيضـا من قويت صحته وكمل جسمه ، واشتدّت شهواته ، ولكن كانت ارادته أشدّ وسلطانه على نفسه أقوى ، وأقوى ما يكون ذلك اذا أتى من ناحية العقيدة الدينية .

(١) سنيكا Seneca كاتب وأخلاقى وسياسى رومانى عاش من سنة ٣ ق م الى سنة ٦٥ ب م

والزاهدون أنواع : فمنهم من يرفض أن ينعم فى الحياة بالمأكل الشهى ونحوه لأنه يرى أن الاستمرار فى طلب اللذائذ يسبب ألما ، فتصبح النفس شرهة ، أطماعها كثيرة ، وآمالها واسعة ، وكلما نالت منها الكثير طمعت فيما هو أكثر منه ، ثم هى تتألم الآلام الشديدة لما حرمت ، وتتجرع مع ماتنال غصصا من الآلام ، أضف الى ذلك أن كثرة التمتع باللذة يفقدها قيمتها ، فمن يأكل كل يوم طعاما شهيا يصبح بعد مدة وهذا النوع من الأكل عنده عادى ، حتى تكون مقدار لذته منه تعادل لذة من قنع بالقليل ، يرى هؤلاء أن شعور الإنسان بأنه قادر على حرمان نفسه يرفعه فوق حوادث الزمان ، ويجعله يرى أن لا قدرة للحوادث ولا للدهر على إخضاعه ، وهذا الشعور يحرر الانسان من ربقة الخوف — وهو شعور فيه من اللذة ما ليس فى الملذات الجسمية — فهم فى الحقيقة يفرون من لذة للذة أخرى أكبر منها ، هى لذة الراحة والطُّمَأْنِينَة وعلو النفس .

هؤلاء نظرهم شخصى أكثر منه اجتماعيا ، فهم يبغون لذة أنفسهم ، غاية الأمر أنهم وجدوها فى الراحة وعدم الانغماس فى الشهوات .

ومن الزاهدين نوع آخر أرقى من هؤلاء ، زهدوا فى اللذائذ لأن ذلك وسيلة الى إسعاد الناس وراحتهم ، كما فعل عمر بن

الخطاب، لم يشأ أن يمتع نفسه بالملذات لأنه رأى أنه إن فعل ذلك توسع الولاة ومن بيدهم أمر الأمة فى البذخ والنعيم حتى يرهقوا الرعية، فزهد ليسعد الناس، ومن هذا الصنف كثير من المصلحين والعلماء الباحثين، يهجرون راحتهم ليستكشفوا ما يوفر الراحة على الناس، وهؤلاء — أيضا — فى الحقيقة لم يضحوا بلذتهم، بل هم من صنف راقٍ، يجدون — فى شعورهم بأنهم مصدر لإسعاد الناس — لذة قلما تعادلها لذة .

ومن الزهاد صنف يتزهد تدينا ، يتقربون الى الله بالامتناع عن التمتع بملذات الحياة — ولهؤلاء نقول : ان الله تعالى شرع الشرائع لإسعاد الناس، وقد رضى عمن اتبعها لأنه عمل لإسعادهم، فمن هجر لذته هو فى عمل صالح يرضى الله — وبعبارة أخرى يسعد الناس — كان عمله مقبولا، وكان من الصنف الثانى، ولكن من ظن أن الله يرضى عن الزهد لأنه زهدٌ فقد أخطأ ، لأنه تعالى لم يجعل تعذيب النفوس سبيلا لرضاه، وماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد فى الحياة ؟ مُدح رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يقوم الليل ويصوم النهار وينقطع للعبادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن يقوم بشأنه » ؟ قالوا : كلنا قال : « كلكم خير منه » — وحقا ليس يصح لأحد أن يستحل

أن يأكل من عمل النـاس ولا يعمل هو فى الحياة للناس شيئا، إنما يرضى الله عمن هجر لذته ليُسعد قومه، وليس من العقل تحمل الألم لأنه ألم .

ومن الناس من يرى — على عكس هؤلاء الزهاد — أن يطلق لنفســه العنان ، ويمكنها من كل ملذات الحياة، يرون أن الإنسان فى هذه الحياة إنما خلق ليتنعم، ولم يمنح العقل إلا ليبحث له عن وسائل النعيم، فهو لذلك يعب اللذائذ عبـا، وينهمك فيها ما استطاع — وهــذا ضار بالفرد وبالمجموع معا، فلو أبحنا لكل فرد أن يتلذذ كما يشـاء ما انتظم شأن مجتمع، ولتعارضت شهوات الأفراد، وكانت الفوضى المطلقة، وإن جمعية أفرادها ليسوا أعفاء — أعنى أنه لا تحكمهم إلا شهواتهم الجسمية — لتحمل معهـا بذور الانحلال والانحطاط .

وفضــيلة العفة تتطلب من الانسان القصد فى اللذائذ، فإن هو أفرط فانهمك فى شهواته، أو فرّط فأماتها، وبالغ فى الزهــد، فقد حاد عن سواء السبيل، خير طريق فى الحياة أن ينيل الانسان نفســه ملذاتها الطيبــة، ويعطيها مشتهياتها ما لم تخرج عن حدود الأخلاق ، فذلك أدعى الى نشاطها وأقرب الى طبيعتها ، إنمـا

يجب ألّا نتجاوز الحدود المشروعة ، ففى داخلها من الملذات ما هو أضمن لسعادة الفرد والمجموع ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَٱلطَّيِّباتِ مِن ٱلرِّزقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيٰاةِ الدُّنيا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلقِيامَةِ﴾ وكثيرا ما يكون من المصلحة أن يمنع الإنسان نفسه مما لا بأس به حذرا مما به بأس، كالذى حكى عن بعضهم أنه أشعل لفافة فأحس منها بلذة شديدة فكان ذلك حاملا له على ألّا يدخن ، وسبب ذلك — على ما يظهر — أنه تخوّف من نموّ الرغبة عنده فى التدخين، وخشى شدّة تسيطر العادة عليه فيما بعد، وكان إحساسه اللذة علامة هذا الخطر فتركه .

وأشير هنا الى مبدأ الأستاذ «چيمس» القائل: بأنه يجب أن نحافظ على قوّة المقاومة، ونتبرع بعمل صغير كل يوم، لا لسبب إلا مخالفة النفس والهوى ، فان ذلك يعيننا على مقاومة المصائب اذا حان حينها .

فليس يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات، وإنما يقتضى تهذيبها واعتدالها ، وجعلها خاضعة لحكم العقل ، ففى القضاء على الشهوات قضاء على الشخص وعلى النوع ، وفى اعتدالها سعادتهما جميعا .

أهم أنواع ضبط النفس :

(١) ضبط النفس عن الغضب، فمذمومُ أن يكون الانسان سريع الغضب يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقير، وليس الغضب بالخطأ دائما ، فهناك حالات يمدح فيها ، فلو رأيت شابا يعذب صغيرا لم يجن جناية ، أو ضعيفا لا يستحق عذابا، أو حيوانا لا حول له ولا حيلة، فحق أن تغضب، كذلك طبيعيّ أن يغضب الإنسان اذا عومل معاملة لا تتفق وشرفه أو نحو ذلك ، فلا بد له من الغضب ليدرأ عن نفسه أو غيره الظلم .

ولكن هذه الحالات قليلة اذا قيست بغيرها من حالات الغضب ، فأكثر حالاته رذيلة مذمومة، ولذلك عد رذيلة، وعد ضبط النفس عنه فضيلة .

وأكثر ما يدفع الانسان الى الغضب أَثَرَته وحبه الشديد لنفسه ، وكثرة التفكير فى حقوقه ، فيتخيل فيما لا يغضب احتقارا له ونيلا منه ، وكثيرا ما يستسلم لغضبه فلا يعى ما يقول، ولا يعقل ما يفعل، ويظن أنه بذلك يظهر بمظهر المحترم لنفسه ، المحافظ على كرامتها ، وهو إنما يظهر بمظهر الطائش الأحمق .

والإنسان فى غضبه حاكم غير منصف ، يبالغ فى الشىء ويسوئه ، فهو كواضع على عينيه منظارا يكبر ويشوه ، وهو لا يرى وقت غضبه إلا الأغلاط ، ولذلك تراه يحكم حتى على أعز الناس عليه أحكاما قاسية ، والواجب أن نتريث ونسائل أنفسنا هل نحن محقون فى غضبنا ؟ أو ليس لما عُمل أو قيل محمل حسن ؟ هل الشىء يغضب حقيقة بالقدر الذى أرى ؟ أو ليس لمن أغضبنى حسنات كثيرة بجانب هذه الاساءة ؟

واجب ألا نستسلم للغضب ، وأن نسلم زمام انفعالاتنا لعقلنا .

(٢) ضبط النفس عن الاسترسال فى الانقباض والسخط ، لأن ذلك يكدّر صفو الحياة ، وفى الناس كثير من هؤلاء المتشائمين الساخطين الذين يرون أن لا أسوأ من هذا العالم ، وأن لذائذه لا تكاد تذكر بجانب آلامه ، وحامل لواء هذا المذهب فى العصور الحديثة «شُوبِنْهَوَر» الفيلسوف الألمانى (١٧٨٨ و ١٨٦٠م) — كان يرى أن حياة الانسان سلسلة آلام ونزاع وكفاح ، وأن هذا العالم أسوأ ما يكون ، فيه من الآلام والشرور أكثر مما فيه من اللذائذ .

وأغلب مايكون هذا النظر عند من ضعفت صحتهم ، أو ساءت أعصابهم ، أو توالت عليهم المصائب من موت أو فقر أو نحوهما ،

فتظلم الدنيا فى أعينهم، ولا يرون فيها إلا ما يؤلم، أحب الشعر اليهم أمثال شعر أبى العلاء، وخير نغمات الموسيقى عندهم مايبعث على البكاء.

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما فى العالم من ملذات، فمثلهم كمثل عُمْى الألوان، الذين يدركون بعضها دون بعض، والحق أن الدنيا مملوءة بالمسرّات والمؤلمات جميعا "ولولا سوء النظم الاجتماعية الحالية وفساد التربية الموجودة لكانت السعادة حظ أكثر الناس ان لم أقل كلهم" .

ان الناس يخطئون فى اعتقادهم أن ما يحيط بالانسان من الأمور الخارجية هى التى تجعله ساخطا أو راضيا، بائسا أو منعما — نعم ان الانسان قد يكون أقدر على السعادة فى بعض الظروف دون بعض، ولكن الظروف نفسها لا تجعله سعيدا، فكثيرا ما تتوافر وسائل السعادة عند قوم وهم مع ذلك أشقياء بأنفسهم، لأنهم يخلقون من كل شىء ما يستوجب السخط، ويلوّنون كل ما يرون باللون الأسود .

ان السعادة أو المسرّة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، ويجب أن يتعلم الانسان "فنّ المعيشة" وكيف يكون راضيا ولو لم يكن كل شىء حوله وفق ما يتمنى .

(٣) ضبط النفس عن الاسترسال فى الشهوات الجسمية ولا سيما الخمر والنساء، فهما شرّ ما يقع فيه الإنسان، ويفسد عليه حياته، ويضعف من روحانيته، ويقلل من حريته، ويسوقه الى أسوأ حياة، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرّض للمغريات، فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرّجون من قول الهُجر والخض عليه، ولا يقرأ الروايات المثيرة، ولا يغشى أماكن اللهو غير المؤدّب، يصحب من قويت شخصيتهم ونظف لسانهم، وطهر روحهم، وأوجب ما يكون ذلك فى السنّ بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين، ففيها تنمو الشهوات وتبعث على الشرور، فلو لم يُحَصَّن الشاب بوسط صالح ورفقة مؤدّبة، ويُعَنْ بما يوضع فى يده من كتب، وما يشاهد من تمثيل، وما يغشى من مجتمعات كان عرضة لأحط أنواع الشرور، فى هذه السنّ يكون المرء عرضة للتحوّل، وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فسادهم فى هذا الدور، وقل أن يسقط أحد بعد أن ينجو منه.

(٤) ضبط الفكر فلا يتركه يهيم فى كل واد، ويتجوّل فى كل مجال، فالفكر اذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها.

وعلى الجملة فضابط نفسه كراكب الفرس الذَّلُول ، يقصد حيث أراد ، فيوجهها كما يشاء — ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعبة ، لا يُسيِّرها كما يهوى ، ولا يصل الى غرضه بالسير كما تهوى .

فى ضبط النفس حفظ الصحة ،وطمأنينة العقل ، والسعادة ، والحرية ، وسلطان كسلطان القائد على جنده ، أو الربان الماهر على سفينته .

العـــدل

العدل نوعان — نوع يوصف به الفرد فيقال إنسان عادل، ونوع يوصف به المجتمع أو الحكومة، ولنتكلم على كل قسم.

فالعدل فى الأفراد إعطاء كل ذى حق حقه، ذلك أن كل انسان لما كان عضوا من أعضاء الجمعية كان له الحق فى التمتع بنصيب من الخير الذى ينال المجتمع، فأخذ الانسان نصيبه لا أكثر، واعطاؤه الناس حقوقهم لا أقل، هو العدل، فالغصب والسرقة ظلم لأن فى كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه، والبائع الذى يكيل للمشترى أو يزن أقل مما اتفقا عليه ظالم لأنه لم يعطه حقه وهكذا.

ومن أعدى أعداء العدل «التحيز» وهو ميل الانسان لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه، وينقص الآخر حقه، فالقاضى مثلا يجب ألّا يفرق فى سيره مع الخصوم بين غنى وفقير، وأسود وأبيض، وذى جاه وعديم الجاه، لأن عمله إنما هو أن يطبق القانون على الأفراد، والناس أمام القانون سواء، فيجب ألّا يجعل مجالا لحبه أو كرهه، ولا لغنى الخصم أو فقره، ونحو ذلك.

وكثيرا ما يتحيز الانسان لآخر ويخطئ فى أحكامه لتحيزه ، وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز، ومعتقدٌ الانصاف فيما يرى ، ومن أجل هذا يجب على الانسان شدّة مراقبته نفسه ، وحذره من الوقوع فى الخطأ .

ويحمل على التحيز أمور :

(١) الحب ، فمن يحب إنسانا يتحيز له ، كالوالدين قلما يريان الخطأ فى عمل أولادهما .

(٢) المنفعة الشخصية، فاحساس المرء بأن أحد الجانبين يكسبه منفعة لاتكون فى الجانب الآخر يجعله يتحيز لأحد الجانبين .

(٣) المظهر الخارجى، فحسن منظر شخص، وجمال هندامه، وفصاحة قوله ، وآدابه فى الحديث كثيرا ما تبعث على التحيز وتبعد عن العـــدل .

وواجبُ يقظة الانسان فى حكمه واجتهاده ألا يتغلب عليه هوى أو ميل يصدّه عن العدل .

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون إلهة العدل بامرأة معصوبة العينين، ممسكة ميزانا ذا كفتين باحدى يديها، وسيفا باليد الأخرى، ويرمزون بعصب عينيها الى أن العادل ينبغى أن يعمى عن

الاعتبـارات التى تجعـله يتحيز من غير حق كغنى وجاه، و بالميزان الى أنه يجب أن يزن لكل انسان حقه بالقسط، و بالسيف الى أنه يجب أن يلجأ الى القوة فى تحقيق العدل عند الحاجة اليها، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ .

ويحمل على العدل :

(١) عدم التحيز، فالذى ينظر الى الشىء مجردا عن الهوى أقرب الى تحقيق العدل .

(٢) توسيع النظر و رؤية المسألة من وجوهها المتعددة، فعند الخلاف فى أمر يجب على كل من المتنازعين أن ينظر الى محل النزاع من الجهة التى ينظر اليها خصمه أيضا، والقاضى عند فصله فى الخصومة يجب أن ينظر الى وجهة كل خصم .

(٣) أن يجعـل مدار الحكم على الباعث للعامل على عمـله لا على مظهره الخارجى، فقد يكون ظاهر العمل سيئا ، ومستفزا للغضب ، ولكنه صادر عن باعث شريف ونية حسنة ، كالذى يقسو على ولده ليربيه .

والمجتمع العادل هو المجتمع الذى له من النظم والقوانين ما يسهّل لكل فرد من أفراده أن يرقّى نفسه على قدر استعداده ، فلا يكون المجتمع عادلا حتى تتوافر لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم ، ففى الأمة مثلا طائفة من التجار يحتاجون فى تجارتهم الى تلغراف وبريد وسكك حديدية وهكذا ، وطائفة من الناشئين يحتاجون الى مدارس يتعلم فيها كل من أراد أن يتعلم ، وفيها من النظم والعلوم ما يسدّ حاجة كل طالب ، وطائفة من المتخاصمين يحتاجون الى قضاة وقوانين تردع الجناة وتحفظ حقوق الناس وهكذا ، فاذا قامت الأمة بكل هذا حق لها أن تسمّى مجتمعا عادلا ، وإلا فهى مجتمع ظالم .

والمطالَب بتحقيق العدل فى المجتمع كل فرد من أفراده ، فكل إنسان مطالَب أن يعمل لتحقيق العدل فى مجتمعه على قدر استطاعته ، فاذا احتاجت مدينة الى مستشفيات مثلا فعلى الخطيب أن يخطب حاثا على إنشائها ، وعلى كُتّاب الجرائد أن يكتبوا ، وعلى الشعراء أن يشعروا ، وعلى الأغنياء أن يتبرعوا ، وعلى كل ذى قدرة وجاه أن يستعمل قدرته وجاهه فى مساعدة المشروع ، ثم على من فى يدهم تنفيذه أن ينفذوا ، فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالأمة كلها آثمة ظالمة ، يقع عليها ضرر تقصيرها ، حتى الأفراد الذين أدّوا

ما عليهم ، لأن المجتمع كما قدمنا جسم عضوى ، وذلك هو شأن الجسم العضوى ، فلو أن القلب أدى ما عليه ولكن المعدة لم تؤده عوقب كل عضو فى الجسم حتى القلب .

و إذ كانت حكومة كل مجتمع هى القائمة بالأمر فيه فهى لا تعد عادلة إلا اذا قامت بواجبها خير قيام ، وليس واجبها أن تحصّل الخير لنفسها ، ولكن أن تحصّل للمجتمع الذى تحكمه أقصى ما تستطيع أن تحصله ، وقد عبر أفلاطون عن هذا بقوله : "ان خير حكومة هى التى تضع كل فرد من الأمة فى خير مكان يليق به ، و يستطيع أن تظهر فيه مواهبه ، ثم تُمدّه بما يحتاجه لأداء ما عهد اليه" وعلى هذا لا تكون الحكومة عادلةً إلا اذا قامت بهذه الوظيفة ، وهو تكليف للحكومة شاق ، من المشكوك فيه أن يتحقق يوما ما ، مهما صغر المجتمع ورقيت حكومته .

وأقل من هذا تكليفا ما قاله بعضهم من أن الحكومة تُعَدّ عادلة ما دامت لا تضع العراقيل فى سبيل أفرادها ، وتتركهم أحرارا يعملون ما يشاءون لترقية قواهم وملكاتهم وأعمالهم ، حسب استعدادهم ، إلا عند الضرورة القصوى ، أما اذا كان بعض أفراد الشعب يريد مثلا أن يتعلم فيجد السبيل قد سُدّت أمامه ، أو التاجر

لايستطيع أن يرقى تجارته للعقبات التى تضعها الحكومة فى سبيله ، فاذ ذاك لا يمكن أن توصف حكومة هذا الشعب بالعدل .

العدل والمساواة — كثيرا ما يقرن العدل بالمساواة ، ويعتقد كثير من الناس أن العدل فى المساواة ، والظلم فى عدمها ، وقد أخذت هذه الكلمة محلا كبيرا فى العقول من عهد الثورة الفرنسية ، فقد كان شعارها «الحرية ، المساواة ، الإخاء» ، «كل الناس أحرار ، كل الناس متساوون ، كل الناس إخوان » .

فى الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة كالثروة التى لابد منها للأكل الطيب والملبس الطيب والمسكن الصالح واقتناء الكتب النافعة ، والقدرة على الرياضة البدنية والعقلية ، ونحو ذلك ، وهذه الثروة لا تكفى لسد مطالب كل الناس ، فهل من الحق والعدل أن يتساوى الناس فى هذه الوسائل الموجودة أو الحق والعدل فى عدم المساواة؟ هل من العدل أن توزع الثروة من أراض ومناجم ومتاع على الناس بالسواء فلا يكون غنى وفقير ولا أرباب أموال وعمال ؟

تغالى قوم فى ذلك ، فطلبوا المساواة فى وسائل الحياة كالمال ونحوه ، وذكروا لذلك حججا لايتسع هذا الكتاب لذكرها .

والحق أن المساواة التامة لا تمكن لأسباب، أهمها :

(١) أن الناس مختلفون بطبيعتهم فى قواهم وملكاتهم، فمنهم الذكىّ والغبىّ، والحاذق والأبله، والكفء وغير الكفء، هكذا خلقهم الله، وهكذا ولدوا، فمن الخُرق أن نمكن الأغبياء والبله وغير الأكفاء من إدارة الأعمال الواسعة، وأن نمنحهم منحا كبيرة لا يستطيعون أن يتمتعوا بها، فانا اذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها، ولم ينتفعوا بثمرتها، مع أنا لو أعطيناهم ضروريات العيش فحسب، وأعطينا ما زاد للكفء القادر سعد الجميع .

(٢) أن الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجدّ، فالفقير اذا رأى الغنىّ يتمتع بأكثر مما يتمتع به هو جَدّ فى العمل ليكون مثله، وحامل الشهادة الثانوية اذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله، وتمتع بعض الناس بالملبس الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يثير فى النفس حب العمل لتصل الى النتيجة المنشودة، ويبعث على الاختراع ويرغب المتزاحمين فى استكشاف خير الطرق لنجاح عملهم، وفى ذلك خير للانسانية على العموم، أما إن نحن سوّينا بين الناس لم نجد ما يحملهم على الجدّ، وقد فطر الناس — متوحشهم ومتمدينهم — على

أن الأمل يُسَيّرهم ، والرغبة فى عيش خير من عيشتهم هى التى تشجعهم .

ومع أن دعاة المساواة لم يصلوا الى غرضهم فقد كان لهم أثر كبير فى تحسين حالة العمال ، وترقية طبقة الفقراء ، بزيادة أجورهم ، وتقليل ساعات عملهم ، وإنشاء المساكن الصحية لهم ، ونحو ذلك .

فالحق أن المساواة المطلقة فى كل شىء لا تمكن ، وليست من العدل ، خصوصا بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة — إنما هناك أشياء تعقل فيها المساواة وهى عدل وعدمها ظلم ، من ذلك :

(١) المساواة أمام القانون ، بمعنى أنه لا فرق أمامه بين غنى وفقير ، وشريف وغير شريف ، كل يعاقَب على جريمته اذا أجرم ، وعند وضع القانون ينبغى ألا تفضل طبقة على طبقة .

(٢) المساواة فى الحقوق ، فكل إنسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر ، ليس لأحد الحق فى أن يخطب أو ينشر رأيه دون الآخر ، بل الكل فى ذلك سواء ، للأمير من الحق ما لأحد الرعية ، وللغنىّ ما للفقير .

(٣) المساواة فى المناصب ، أعنى أنه ليست المناصب مقصورة على فئة خاصة ، بل كل من تتوافر فيه الصلاحية للمنصب له الحق فيه ، وليس للاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه دخل فى التفضيل .

(٤) المساواة فى التصويت فى الانتخاب ، فليس ذلك حق الأغنياء دون الفقراء ، وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء ، ولم تتبع الأمم نمطا واحدا فى السير عليه .

العدل والرحمة — كثيرا ما يقول الناس : « الرحمة فوق العدل » يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل — وهذا ليس بصحيح على عمومه ، بل قد يكون صوابا وقد يكون خطأ ، ونحن نذكر أمثلة مما تستعمل فيه هذه الجملة :

(١) موظف ليس كفئا ، لايحسن عمله ، ولا يفيد الناس ، أريد الاستغناء عنه من أجل ذلك لكنه كبير فى السن ، ورب أسرة وفقير ، فيقال : « الرحمة فوق العدل » أى أن العدل يقضى بالاستغناء عنه ، والرحمة تقضى ببقائه فى عمله ، ولكن يجب أن نطبق فى هذه المسألة العدل لا الرحمة ، فالعدل هنا فوق الرحمة ، وليست الرحمة فوق العدل ، ذلك لأن الضرر الذى ينال الناس من إهماله فى عمله ،

وعجزه عن القيام به يفوق الضرر الذى ينال الموظف وأسرته ، ولأن «المصلحة» التى يشتغل فيها ليست ملجأ للإحسان يرتزق منها مع عدم كفايته ، بل هو يأخذ أجره فى مقابل عمله ، فمن لم يحسن عمله لم يستحق أجره ، وكونه رب أسرة وفقيرا يجعله يستحق الإحسان لا من «المصلحة» ولكن من معاهد الإحسان .

(٢) عامل ترام « كمسارى » تريد أن تشفق عليه فتعطيه ثمن التذكرة ولا تأخذها منه « لأن الرحمة فوق العدل » وهذا أيضا خطأ ، لأن ثمن التذكرة ليس ملكك ، ولكن ملك الشركة ولا يصح أن تحسن من مال غيرك إلا برضاه ، فاذا أردت الاحسان فأعطه من مالك الخاص بعد أن تدفع ثمن التذكرة .

(٣) لص قُبض عليه وهو ينتشل «محفظة» فأخذ يستعطف الناس ويبكى ليُفرَج عنه فيقولون : « الرحمة فوق العدل » وليس ذلك بصحيح ، لأن معاقبة السارق من حق الأمة ، فلا يملك العفو عنه بعض الأفراد .

(٤) مسجون سجن ظلما وعدوانا يراد العفو عنه ، فيقال « الرحمة فوق العدل » وهو خطأ أيضا لأن العدل يقتضى كذلك ألا يسجن ، فالرحمة والعدل يتفقان فى المطلب ، وليست الرحمة فوق العدل .

نعم فى بعض المواضع يكون استعمال الجملة صحيحا، كما إذا كان لك دَين على آخر فرحمته وتركت دَينك، أو أجلته حتى يوسر، فالعدل أن تأخذه والرحمة أن تتركه أو تؤجله، والرحمة فوق العدل .

وجملة القول أن الجملة صحيحة اذا كان الذى يرحم هو الذى يملك حق العدل، ثم هو يتنازل عن حقه فى العدل ويرحم، أما الرحمة حيث يكون العدل من حق غيره فخطأ بيّن كما مثلنا .

[العدل والإحسان — كذلك كثيرا ما يقرن العدل بالإحسان، ونعنى بالعدل أداء الواجب من غير تحيز، وبالإحسان الفضل فى أداء الواجب والزيادة عليه، ولنضرب لذلك مثالا يتجلى فيه معنى الإحسان .

هب أن اثنين اشتركا فى عمل، وكان أحدهما قويا والآخر ضعيفا، فموقف القوى مع الضعيف لا يعدو أحوالا ثلاثة :

(الأول) أن يستغل القوىّ مركزه، ويقول: إننى أقوى منه، فلأنتهز فرصة ضعفه وأكلفه عمله وجزءا من عملى، فاذا لم يعمل أجبرته واتخذت ما أستطيع من الوسائل لارغامه . وهذا موقف يمثل المبدأ المشهور «الحق للقوة» وهو مبدأ سار عليه الناس فى حالة بداوتهم وهمجيتهم . ولا يزال يطبق بين المتمدينين وان كان أقل من قبل، وهذا هو «الظلم» بعينه .

(الثانى) أن يقول القوى : إن على نصيبا من العمل، وعلى زميلى نصيبا ، ولست أستغل قوتى فأحمّل زميلى فوق نصيبه ، ولا أطبق مبدأ «الحق للقوة» ولكن أعمل واجبى لا أكثر ولا أقل، وليعمل هو نصيبه لا أكثر ولا أقل .

وهذا الموقف هو العدل ، يتساوى فيه العاملان بأن يعمل كل واجبه .

(الثالث) أن يقول القوىّ : إنى أستطيع بحكم قوتى أن أرغم زميلى على أن يعمل أكثر من نصيبه، وأستطيع أن أعدل معه فأكلفه نصيبه فقط ، ولكن سأعمل فوق ذلك ، سأعمل نصيبى وأعينه على نصيبه، سأساعده فى نصيبه لأنه أخى، ولأنى لو كنت مكانه لتمنيت أن يُعيننى زميلى، فلأعامله بما أحب أن أعامَل به لو كنت مكانه ، ولو كنت أنا الضعيف لتمنيت أن القوىّ يحمل عنى بعض العبء ، فلأحمل الآن بعض عبئه جريا مع القاعدة الذهبية «أَحِبّ لأخيك ما تحب لنفسك » .

هذا هو « الإحسان » وهو موقف أشرف من العدل، وأعلى منه شأنا] .

الاعتماد على النفس

من أهم الفضائل الاعتماد على النفس ، ويمكن الإنسان أن يعوِّدها من صغره ، فلو أن الوالدين أفهما أطفالهما وجوب عنايتهم بأنفسهم فى نظافة ملابسهم وانتظامها وأنهم هم المسئولون عن ذلك كان هذا بذرة للاعتماد على النفس .

ويستطيع الوالدان أن ينميا هذه الفضيلة بالإصغاء الى مايبديه الطفل من الأسئلة والإجابة عليها ، وإظهارهما احترام آرائه ومناقشتها ، وإبداء ما فيها من ضعف ، فى لطف ، مهما كانت الأسئلة والآراء سخيفة .

إذا سلك الوالدان هـذا المسلك شعر الطفل بأن له شخصية محترمة ، فنما عنده حبّ السؤال ، وحب تكوين الآراء ، ولم يصبح بَبَّغاء يردّد فقط مايسمع ويرى — وزاد عنده الشعور كذلك باحترام ما لغيره من شخصية ، فهو يعامل أصدقاءه وزملاءه بالطريقة التى يعامله بها أبواه ، فيصغى للآراء المخالفة لرأيه ، وينقدها فى أدب ، فيزيد ذلك فى نمو شخصيته واستقلاله .

كذلك مما يعين على نمو هذه الفضيلة أن يجعل الوالدان لأولادهم «مالية خاصة» يستولون عليها، ويتصرفون فيها بحريتهم، ثم يصحح الوالدان ما ارتكب الأطفال من أخطاء فيها، وهذا هو الطريق الوحيد لتدريبهم على تحمل المسؤلية، وشعورهم بالشخصية، فبيع الأطفال وشراؤهم، ونجاحهم أحيانا وغَبْنُهم أحيانا، يجنبهم الخطأ فى المستقبل، وأكبر برهان على ما نقول ما نرى من شُبّان حُرموا المالَ فى صغرهم ثم أُعطُوه دفعة واحدة فى شبابهم فأساءوا التصرّف، ووقعوا فى أضرار جسيمة، لأنهم لم يُدَرّبوا التدريبَ الكافى منذ نشأتهم.

فإذا ذهب الطفل الى المدرسة، وعوّده المعلمون الاستقلال بنفسه فى بعض أعماله، كحل بعض المسائل الحسابية، والكشف فى المعاجم عن الكلمات التى لم يفهمها، وتركوه ونفسه يفكر فى المعضلات، ويتفهم بعض الجمل الصعبة التى تعترضه نمت عنده هذه الفضيلة.

إن من اعتاد ألا يتحمل شيئا من العبء بل ترك غيره يحمل عنه عبأه لا يستطيع بعدُ السير فى الحياة، فالتلميذ الذى ينتظر جاره حتى يحل المسائل ثم ينقلها منه، أو ينتظر المدرّس دائما حتى يشرح

له ما غمض عليه لا يمكن أن يأتى يوم يكون فيه متعلما حقا، فالشجرة التى تُسندها دائما على حائط لا تحمل نفسها، إنما الشجرة التى نمت بنفسها، واعتمدت على ذاتها هى التى تقاوم العواصف، وتكون أصلح للبقاء.

والاعتماد على النفس وسيلة من وسائل الاقتصاد، فالأم التى تعتمد فى كثير من شؤون بيتها على نفسها تقتصد كثيرا، والرجل الذى عوّد نفسه أن يصلح الأشياء الصغيرة فى بيته يوفر كثيرا، وهكذا.

كذلك هو الوسيلة الوحيدة للتعلم، فالطفل لا يستطيع أن يتعلم المشى إلا إذا اعتمد على نفسه وسقط ثم قام، ولا يستطيع أحد أن يتعلم السباحة بقراءة كتاب فيها، إنما يتعلم ذلك باعتماده على نفسه وفشله مرّة ونجاحه أخرى، وإنما نتعلم القراءة والكتابة بمحاولاتنا، فإذا اقتصرنا على أن نسمع غيرنا يقرأ، ونظرنا غيرنا يكتب، فمحال أن نقرأ أو نكتب، وهكذا الشأن فى كل علم.

وليس يمكن أن يدوم الزمن الذى يحمل عنا عباءنا فيه آباؤنا، بل لا بدّ من يوم نحمل فيه عباءنا وعبء غيرنا، فكان حتما أن نتسلح من صغرنا بالاعتماد على النفس حتى اذا جاء ذلك اليوم كنا على استعداد لمواجهته — سيأتى اليوم الذى نكلّف فيه أن نحصّل المال

ننفق منه على أنفسنا ومَنْ نَعُولهم، فلا بد أن نمرَّن من صغرنا على العمل الذى نعدّ أنفسنا له من تجارة أو منصب أو حرفة ، وهب أننا أغنياء ولسنا فى حاجة الى مَنْصب أو عمل فليس من الحق أن نعيش عالة على العاملين، بل الحياة نفسها عبء ثقيل اذا لم تلطف بالعمل .

وطريقة إعدادنا لذلك أن نتسلح بالعلم و بالخلق، فكل تجارة وكل منصب وكل حرفة لا يفلح صاحبها إلا اذا علم ما يتصل بها وتخلق بما يلزمها .

كيف نربى فضيلة الاعتماد على النفس — من خير الوسائل لذلك أن يعوّد المعلمون الطلبة أن يواجهوا العقبات بأنفسهم، وأن يطلبوا منهم بذل الجهد فى حلها ، ولا يلقوا اليهم بالمعلومات إلا بعد أن يُعمِل الطلبة أذهانهم فيها، وكلما أجهد الطالب نفسه فى الاستفادة كان أقرب الى النجاح ، فليس أعلم الناس من كان لديه أحسن مكتبة، لأن هذه المكتبة لا تفيده إلا بقدر ما يهضم منها — وهذا هو السبب فى أن أبناء الفقراء وأوساط الناس — عادة — أقرب الى النجاح من أبناء الأغنياء، لأن الأولين تدعوهم قلة المال الى بذل الجهد، ومحاسبتهم أنفسهم على

ما ينفقه عليهم آباؤهم ، ويعملون لأنفسهم حيث يرتكن أولاد الأغنياء فى كثير من شؤونهم على غيرهم .

إن الصعوبات التى يلقاها الإنسان فى حياته هى التى تصقل ملكاته ، والانهماك فى الترف والنعيم يورث الخمول ، وليس يُجْلَى الذهب إلا فى البوتقة ، اعتبر فى ذلك بالنبات ، فان النبات الذى تربى فى حديقة المنزل وبين جدرانه ، ولم يعتد العطش ، ولم يقابل العواصف ، يكون نباتا رقيق الحال لا يعيش اذا تعرض للجو الخارجى ، وعلى العكس من ذلك ما نبت فى الصحراء بين الشمس القاسية ، والريح العاتية ، كذلك الناشئ اذا نشأ فى مهد النعيم وعُوّد أن يرى كل شىء حسب ما يطلب لايستطيع أن يكون رجلا يواجه الحياة .

يجب أن نتعوّد الاستقلال فى الرأى فلا نقتصر على أن نكرر ما نسمع ، ونعنى بالاستقلال فى الرأى أن نكوّن فكرنا من أنفسنا ، ندرس الشىء ثم نعتقد ما يؤدينا اليه بحثنا ولو خالفنا فى ذلك غيرنا ، وقد كان ذلك دائما عمل المصلحين وكبار الرجال ، يفكرون بعقولهم لا بعقول غيرهم ، ولا يتبعون رأى غيرهم إلا اذا قام البرهان على صحته ، ثم اذا رأوا حقا قالوا به مهما كانت نتائج قول الحق .

للاعتماد على النفس لذة يشعر بها الإنسان وإن قلّت نتائج ما يصدر عنه ، فكلنا يُسَرّ من ربح قليل أتى ببذل الجهد ، ولا يرضى عن كثير قُدّم اليه إحسانا ، والرجل يُسَرُّ ببيته وان قل متاعه ، لأنه نتيجة مجهوده العزيز عليه .

النِّضال فى الحياة هو الذى يكوّن المرء ، والعقبات التى يصادفها فى طريقه فيبذل الجهد فى تخطيها هى التى تربى نفسه ، وتعدّه لأن يكون عظيما ، والانسان قد يتعلم من فشله أكثر مما يتعلم من نجاحه ، فلا خوف من بذل الجهد أن يعقبه فشل ما دام يفتح عينيه ويدرس التجارب التى عاناها ، ويتجنب الأخطاء فى مستقبل حياته ، فقائد الجيش يتعلم كثيرا من الوقائع التى هُزم فيها ، والسياسى يتعلم كثيرا من مواقف فشله ، والعالِمُ فى دراسته يستفيد كثيرا مما ارتكب من أغلاط ، والخطيب الماهر ما كان كذلك إلا بعد أن خطب مرارا وسخر الناس منه ، وكذلك الكاتب والشاعر والفنّان .

فإن أردت النجاح فاعتمد على نفسك فى تعلمك وفى تجارتك وفى منصبك ، وتعلم مما أخطأت ، فإن هذا هو السبيل الوحيد للنجاح .

الطـاعـــة

رأينا فيما ســبق أن الإنسان عضو فى جمعيات كثيرة ، عضو فى جمعية الأسرة ، وعضو فى جمعية المدرســة ، وعضو فى جمعيــة الأمة ، وهكذا .

لكل جمعية من هذه الجمعيات قوانين لابد أن تتبع والا لا يمكن بقاؤها ، ففى الأسرة — مثــلا — يجب على الوالدين أن يطعموا أولادهم و يربوهم ، وعلى الأولاد أن يتبعوا أوامر والديهــم ، والا لمــا بقيت الأسرة ، فلو أن كل طفل فى الأسرة فعل كما يهوى ، ولم يخضــع لأى أمر ، ولم يُعْنَ الوالدان أيّة عنــاية بأطفالهما ، لصارت معيشة الأسرة مستحيلة — ولو أن كل تلميذ فى مدرسة سار كما يشتهى ، حضر أو لم يحضر ، واذا حضر فعــل ما يشاء ، ولم يفعل ما يشاء ، وفعــل كذلك المعلمون فى المدرســة ، لم تعش المدرسة أياما ، ولو أن كل جندى فى الجيش اعتبر نفسه مساويا للقائد ، وعمــل برأيه فسار يمينا اذا أمره القائد أن يسير شمالا ، لم يكن هذا جيشا صالحا ، وكان نصيبه الفشل لا محالة .

من هذا يتضح أن لكل جمعيـة من بيت ومدرسة وجيش قوانين لا يمكن أن تبقى هذه الجمعيات بدونها، وأن صلاحها بطاعة قوانينها .

والعصيان فى كل مجتمع يجرّ الى الفوضى، لأن معنى العصيان انعدام القانون، و إقامة الفرد شهوته وهواه مقام القانون ، ومعنى هذا أنه يريد أن يتخذ الناس ارادته وهواه قانونا بدل القانون الأخلاقى ، و إرادة الفرد لا يمكن أن تقهر القـانون الأخلاقى كما لا يمكن أن تقهر القانون الطبيعى ، فلو اجتمع النـاس أن يغيروا طبيعة المـاء وقوانين الجذب ما أمكنهم ، كذلك لا يمكنهـم أن يغـيروا طبائع المجتمعات وتغيير ما يصلحها وما يفسـدها ، فخير وسيلة لاصلاحها الجرى حسب القوانين التى تبقيها وترقيها .

بعض هذه القوانين الأخلاقية التى لا بدّ منها للمجتمع وضعت فى القوانين الوضـعية كتحريم السرقة والقتل ، و بعض القوانين كترك الحسـد والكذب ترك للأفراد وضمائرهم ، وكلهـا قوانين أخلاقية يجب إطاعتها، فإن إطاعتها مجلبة للخير والسعادة، ومعصيتها مجلبة الشر والشقاء .

قد يشعر الانسان أن فى إطاعة الأمر ذلة ، وأن فى العصيان حرية، وهذا خطأ فى التفكير، فان فى الطاعة الحرية، وفى العصيان

ضياعها ، قد يتخيل الطالب أن المعلم انما يأمره حبا فى الأمر ، ورغبة فى إظهار السلطة، وليس كذلك، فإن الآمر العاقل انما يأمر مراعيا المصلحة العامة ، وهو مثلك خاضع لها ، وكل الفرق أنه بحكم مركزه وتجاربه تعود أن ينظر الى الخير بأحسن مما تنظر، فالحق أن الآمر والمأمور كلاهما يطيع، يجب ألا يأمر الآمر الا بما فيه خير المأمورين ، أفرادا ومجتمعين ، فالمأمور لا يطيع لأجل الطاعة نفسها، ولا الآمر يأمر لذة فى الأمر ، وانما نأمر ونطيع ليصل كل منا الى سعادته وفلاحه .

وهناك مواقف يجب ألا نطيع فيها، كما اذا أُمِرْنا من صديق بسرقة شيء، أو غش فى امتحان، أو تزوير فى ورق، أو انتخاب من لا يصلح، هنالك يكون العصيان فضيلة لأن فى إطاعة هذه الأوامر وأمثالها خروجا على الأخلاق ومخالفة للضمير، ونحن ملزمون باتباع قوانين الأخلاق وسماع صوت الضمير، وانما أُمِرْنا بالطاعة للوالدَين والمعلمين وأمثالهم لأن ثقتنا بهم جعلتنا نعتقد أنهم أوسع منا نظرا ، وأصح رأيا ، فهم اذا أمرونا فإنما يأمرون بما يتفق والأخلاق، واذا نهوا فانما ينهون عن المنكر والإثم، وهم بحكم صلتهم ومركزهم — لا يودّون لنا إلا الخير .

والحق أن الطاعة هى الفضيلة البارزة التى تميز بين المتمدينين والمتوحشين، فى الأمة المتمدنة يطيع الطفل أوامر أبويه علما منه بأن لا سعادة للأسرة إلا بالطاعة، والأطفال يتعلمون الطاعة فى البيت فيطيعون فى المدرسة، لأنهم يشعرون أن الحياة المدرسية لا تكون سعيدة إلا بالطاعة، ولا قيمة للمدرسة إلا بالطاعة، واذا خرج من المدرسة الى الحياة العامة فهو مطيع لقوانين البلاد، مطيع لقوانين الجمعيات التى ينتسب اليها — وعلى العكس من ذلك الأمة التى لم تأخذ بحظ وافر من المدنية، ففى كل مجتمع عصيان، فى البيت، وفى المدرسة، وفى محال اللهو، وفى سماع المحاضرات، وفى الشارع، ومظهر هذا العصيان عدم النظام، فإن النظام إنما يكون بمراعاة القوانين الموضوعة والقوانين المتعارَفة، والسير على وفقها من غير انتظار رقيب، ولا محاسبة إلا محاسبة الضمير.

وخير الطاعة ما صدرت عن قلب لا خوفا من عقوبة أو رغبة فى مثوبة.

الانتفاع بالزمن

[الزمن كالمال، كلاهما يجب الاقتصاد فيه وتدبيره، وان كان المال يمكن جمعه وادخاره لوقت الحاجة بخلاف الزمن .

قيمة كل من الزمن والمال فى جودة إنفاقه وحسن استعماله، فالبخيل الذى لا ينفق من ماله إلا فيما يسدّ رمقه فقير، كمن كانت أمواله مزيفة، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد فى سعادته وسعادة الناس فعمره مزيف .

إنا نعيش فى زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيما محدودا، صِبا فشباب فكهولة فشيخوخة، ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن يعمل فى غيره، كالزرع اذا فات أوانه لم يصح أن يزرع فى غيره، وحياة محدودة، فاذا جاء الأجل فلا مفرّ من الموت .

وما فات من الزمن لا يعود، فالصِّبا اذا فات فات أبدا، والشباب اذا مر مرّ أبدا، والزمن المفقود لا يعود أبدا .

واذا كان محدودا وكان لا يمكن أن يُمَدّ فيه أو يُقْصَر، وكانت قيمته فى حسن إنفاقه، وجب أن نحافظ عليه ونستعمله أحسن استعمال .

وليس للانتفاع بالزمن والمحافظة عليه إلا طريق واحد، هو أن يكون لك غرض فى الحياة ترضى عنه الأخلاق فتنظم زمنك للوصول اليه .

وإنما يضيع الزمن بأمرين : الأول ألا يكون للانسان غرض يسعى اليه ، قال عمر بن الخطاب : " إنى لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْلَلًا ، لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة " — فما أضيع زمن قارئ يقرأ ما يقع فى يده من الكتب من غير أن يكون له غرض معين ، كبحث موضوع خاص أو دراسة مسألة خاصة — وما أتعب من يمشى فى الطريق لا لغرض ، يسير من شارع لشارع و يتنقل من حانوت لآخر لا لغرض معين — وتحديد الغرض يوفر من الزمن الشىء الكثير ، و يسيِّر الانسان فى الحياة على هدى ، كلما صادفته أمور عرف كيف ينتخب منها ما يغذى غرضه ، و يتجنب ما لا يتفق معه ، ان الذين لا يحدّدون أغراضهم و يتركون الزمن يمرّ عليهم كما يمر على الجماد قلما يصدر عنهم خير كبير أو يأتون بعمل عظيم — والانسان بلا غرض كالسفينة فى البحر بلا مقصد .

و يلاحظ أن أكثر الناس عملا أوسعهم زمنا ، ذلك لأنهم محدودو الغرض ، فهم يوجهون أعمالهم لنيله ، ولا يصرفون زمنهم فى التردّد والاختيار ، ولا يكونون كرة فى يد الظروف تلعب بهم كما

تشاء، بل هم الذين يخلقون الظروف ويتصرفون فيها حسب أغراضهم فى الحياة .

الثانى مما يضيع الزمن أن يكون للانسان غرض محدود ولكنه لا يخلص لغرضه، فلا يجدّ للوصول اليه، ولا يعمل ما يتفق معه.

عدم الغرض وعدم الاخلاص له هما اللصان اللذان يسرقان الزمن ويضيعان فائدته .

ومن نتائج هـذين العدوين التأجيل، وعدم الدقة فى مراعاة الوقت المحدود للعمل، وعدم المواظبة — فتأخر دقائق عن البدء المحدّد معناه ضياع دقائق من وقت العمل، وذلك يؤدّى الى إحدى نتيجتين : إما الاسراع فى العمل وعدم الدقة فيـه ليعوّض الزمن الفائت، وإما التعدّى على أوقات خصصت لواجبات أخرى — ومن هذا النحو تأجيل العمل الى وقت غير وقته، فالعمل المؤجل قلما يُعْمَل، واذا عُمل فقلما يعمل بإتقان كما اذا كان فى وقته .

وليس يتطلب الانتفاع بالزمن أن نعمل باستمرار، وألا نترك وقتا للراحة، وانما يتطلب أن نستعمل أوقات الراحة والفراغ استعمالا يجعلنا أقدر على العمل، فاذا صرفنا وقت الفراغ فى كسل وخمول لم ننتفع به ولم يفدنا فى العمل، واذا نحن صرفناه فى لعب مفيـد

أو فى رياضة بدنية أفادنا ذلك فى عملنا، وأنالنا من القوة مانستطيع أن نخدم بها غرضنا، وكان هذا تدبيرا واقتصادا .

الزمن هو المادة الخام للانسان، كالخشب الخام فى يد النجار والحديد الخام فى يد الحداد، فكل يستطيع أن يصوغ منه حياة طيبة بجدّه، وحياة سيئة باهماله — ولأجل أن نجعل لحياتنا قيمة يجب أن نقضى أوقاتنا فيما يتفق وأغراضنا .

ومما يعين على الانتفاع بالزمن أن نعرف — بعد تحديد الغرض — هاتين المسألتين :

(١) كيف نبتدئ العمل .

(٢) وكيف نستمر فيه حتى ننتهى منه .

لعل من أشق الأشياء معرفة الانسان كيف يبتدئ عمله ، وكثير من الزمن يذهب سدى فى التفكير فى ذلك — ترى الطالب يريد مذاكرة دروسه فيفكر بم يبدأ، فيرى أن يبدأ بالعلوم الرياضية مثلا، ويشرع فى ذلك ثم يستصعبها فيشرع فى غيرها وهكذا، فهو يصرف زمنا طويلا قبل أن يبدأ بجدّ — أضف الى ذلك أن بدء الشيء صعب عادة لعدم المران ، أو لأنه انتقال من راحة لذيذة الى عمل يشق عليه .

وعلاج الأمر الأول — وهو بم يبدأ — أن يفكر — قبل العمل — فى أَوْلى الأشياء بالبدء، و يدرس وجوه الترجيح ثم يرتب ما يليه وهكذا، ثم يعزم عزما قويا لا يشوبه تردّد، ولا يسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات، أما من يرى أن البدء صعب عليه و يرى نفسه منصرفة عن العمل فما يفيده فى ذلك أن يقرأ فصلا من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله الى الجدّ وتعيد اليه نشاطه، أو يستحضر فى ذهنه نتائج الكسل والجدّ، أو يتذكر أشخاصا جدّوا فنبغوا فى الحياة .

فاذا بدأ فقد قطع شوطا بعيدا للنجاح ، بعد ذلك يجب أن يستمر، وانما يستمر بالعزم القوى الثابت ، و يشجعه على ذلك أن يكون العمل الذى يختاره فى الحياة عملا يتفق ونفسه، أعنى أن يكون عنده استعداد له وميل اليه ، يشعر منه بفائدة ولذة — فأكثر أسباب الملل، يرجع الى سوء اختيار العمل .

أوقات الفراغ — إن استعمال أوقات الفراغ استعمالا حسنا من أهم مسائل الحياة التى يجب العناية بها والتفكير فيها، فان أكثر أعمارنا تذهب سدى لأنا لا نعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ، يقضيها الأطفال فى الحارات والشوارع بلا فائدة، و يقضيها الشبان والشيوخ على "القهوات" حيث لا هواء نقيا ولا منظرا حسنا

ولا رياضة بدنيـة ولا فكرية — أوقات طويلة تذهب فى كلام لا قيمة له ، أو لعب لا يفيد ،ولا يقصد منه إلا "قتل الوقت" — وأثر ذلك فى أوقات العمل كبير، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف كيف يجد .

لعل من أهم الأسـباب لذلك قلة الأندية للرياضة البدنيـة فى الأحياء المختلفة، ففى أكثر الأحياء لا تجد مكانا يرتاض فيه إلا الشارع "والقهوة" — يجب أن تكون أندية اللعب والحـدائق والمكاتب فى كل حى من الأحياء .

أضف الى ذلك أن جهل الأمة وعدم تربيتها تربية صحيحة يفسد ذوقها ، وهذا هو السبب فى أنك تجد "القهوة" والروضـة والمكتبة والملعب فى حى واحد ثم تجد "القهوة" وحدها هى العامرة بالزائرين .

وسبب ثالث وهو أن فقدان السعادة المنزلية فى بيوتنا جعلنا نفر من البيوت — التى كان يجب أن تكون أعز شىء عندنا — الى الأندية العامة نمضى فيها أنفس أوقاتنا . وسبب فقدان السعادة المنزلية يرجع فى الأغلب الى انتشار الفقر وجهل الزوجين — وعدم معرفتهما "فن الحياة"] .

التعاون

التعاون نوعان : تعاون بين أفراد الأمة الواحدة، وتعاون بين الأمم

التعاون بين أفراد الأمة الواحدة

الانسان مدين بحياته ووجوده للمجتمع ، فلولا اجتماع أبويه وتعاونهما ماوجد ولا تربى، وليس يستطيع بعدُ أن ينقطع عن العالم ويتجرد من كل ما كسبه منه ، فهو حتى لو عاش فى جزيرة وحده، إنما يستعمل — فى تحصيل رزقه وصيد الحيوانات التى حوله — الآلات التى علّمه إياها المجتمع، بل هو لولم يتخذ معه آلات ولا كساء فانما يجمع ما يقتاته وينسج ما يلبسه بمعلومات هو مدين بها لمجتمعه ، فالتعاون بين الأفراد لا بدّ منه للحياة ، وكلما تقدّم الناس فى الحضارة كانت حاجتهم الى التعاون أشدّ ، ويظهر ذلك جليا اذا قارنت بين سكان القرى وسكان المدن ، فالفلاح يزرع ، وهو يطحن ويخبز، ولا يستعين على ذلك الا بأهل بيته ، وقد ينسج ملابسه بنفسه من صوف غنمه، ويربى أولاده فى حقله، وعلى الجملة فمطالب الحياة لديه بسيطة قليلة، يقوم فى أكثرها بنفسه وأهله ، أما ساكن المدن فمحتاج الى مخبز يعدّ له الخبز، ولبّان

يحضر له اللبن، وفى ملابسه يحتاج الى مراكب تستورد له ملابسه من الخارج ، وخياط يخيطها له ، ومدارس تربى أولاده ، وترام أو سيارات ينتقل عليها ، و جرائد يقرؤها ، ونحو ذلك من المطالب التى يستغنى القروىّ عن كثير منها .

وكثرة الحاجات والمطالب ، وشدّة الحاجة الى التعاون ، ألجأت الناس الى توزيع الأعمال ، وتخصيص كل طائفة لعمل وتعاون كل طائفة من العمال مع الأخرى .

أنظر — مثلا — الى الكتاب الذى تقرؤه ، فقد اشترك فيه ألوف من العمال قبل أن يصل الى يدك ، وتعاون عليه طوائف من الصناع كل طائفة تخصصت لعمل ، فطوائف لصنع الورق قد تخصصت كل جماعة لنوع من صناعته ، هؤلاء لعجينته ، وهؤلاء لصقله وهكذا ، والمؤلف الذى ألف الكتاب قد اشترك فى إعداده للتأليف جماعة كثيرون ، ربوه وأعانوه وعلموه حتى استطاع أن يؤلف ، واذا نظرت الى المطابع التى طبعت الكتاب اتسع مجال النظر ، فكم من الصناع اشتركوا فى صنع آلات الطباعة ! وصنع الحبر ، وصنع الحروف وكم من العمال صفوا الحروف ثم طبعوها ! وهكذا ، ولولا هذا التعاون بين طوائف العمال ما وصل الكتاب الى يدك .

وتوزيع العمل على الناس، وتخصيص كل طائفة بعمل ساعد على الاتقان، كالذى ترى فى لاعبى الكرة، فلو أنك رتبت اللاعبين، وكلفت كل لاعب عملا خاصا، انتظم اللعب، وكان أوفى بالغرض، وعلى العكس من ذلك اذا أنت سمحت لكل لاعب أن يأتى بكل أعمال اللعب من غير تحديد.

كذلك كان هذا التوزيع من وسائل توفير الزمن وتوفير المال، فالقمح لو اشتغل أفراد فى حصاده، وآخرون فى طحنه، وطائفة ثالثة فى خبزه، أخذ زمنا أقل فى إعداده، وكان أرخص مما اذا اشتغلت طائفة واحدة بالحصاد والطحن والخبز معا.

لعلك نظرت الى آلة من الآلات الكبيرة كآلة الطباعة، أو آلة رفع المياه، أو توليد الكهرباء، وكيف رأيت أن كل آلة مركبة من أجزاء مختلفة، كل جزء له عمل خاص، فعجلات ومكابس ونحوها تتحرك حركات مختلفة، وكل جزء يتحرك حركة مناسبة للآخر، ومؤدية لتحصيل الغرض من الآلة، كذلك الناس والحياة، هم آلة كبيرة، كلّ يؤدّى عملا جزئيا، وكلّ يتعاون مع الجزء الآخر فى عمله، ولو قعد جزء هام من العمال عن العمل لوقف سير العمل جميعه، كما إذا وقف جزء هام من آلة الطباعة، وكل جماعة من

الناس صالحون لنوع من العمل قد لا يصلحون لغيره ، فالواجب أن يعملوا ما صلحوا له وأن يؤدوا عملهم على أحسن وجه ، علما بأن بقية أجزاء الأمة يتوقف عملها على عملهم ، وان لم تر ذلك عيونهم .

كثيرا ماتقرأ أو تسمع أن بعض المؤلفين وعظماء الرجال ماتوا غرقا من إهمال ربان سفينة ، أو سقط عليهم البيت من إهمال مهندس ، أو نحو ذلك ، كل هذا يدلنا على أن كل إنسان فى أمة يتعدى عمله غيره من الناس ، وقد يصل أثر ذلك الى حياتهم ، وهذا يجعلنا نشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقنا ، ويوجب علينا أن نُخرج العمل الذى عهد الينا كأحسن ما نستطيع ، كما يوجب علينا ألا نحتقر من يعمل غير عملنا ، كل يؤدى واجبا ، وكل لا بد من عمله لسير الأمة ، فالمؤلف إنما يستطيع أن يتفرغ للتاليف لأن غيره من الناس يشتغل له فى إعداد مأكله ومشربه وملبسه ، وأنت إنما تتعلم وتتفرغ لتحصيل علمك لأن غيرك قد كفاك مؤونة السعى لتحصيل العيش ، وهكذا الناس ، كلٌّ خادمٌ وكلٌّ مخدومٌ ، وخير الناس أنفعهم للناس .

ولا يصح أن يسمح بالتعاون بين الأفراد أو الشركات اذا كان فى ذلك ضرر بالأمة ، كما يحدث فى الاحتكار ، فلو اتحدت شركات

المياه والنور على رفع السعر حتى أرهقوا الشعب كان هذا ضربا من التعاون بين هذه الشركات ، ولكنه تعاون ضار لا ترضى عنه الأخلاق ، إنما ترضى الأخلاق عن أنواع من التعاون تزيد فى رقى الأمة ، كالتعاون على حماية العمال من أرباب رءوس الأموال ، وكجمعيات التأليف ، ونوادى الفنون والألعاب الرياضية ، وجمعيات البرّ والاحسان ، وجمعيات التعليم ، فإن التعاون بين هذه الجمعيات والنقابات يزيد فى سعادة الأمة ويعين على نهوضها .

التعاون بين الأمم

هناك نوع آخر من التعاون هو التعاون بين الأمم ، وذلك على ضروب شتى .

من ذلك التعاون التجارى ، فخيرات هذه الأرض قد وزعت على العالم ، فالبن والقطن والأرز والفاكهة والفضة والذهب والحديد ونحوها ليست مجموعة فى بقعة واحدة ، وانما يكثر فى أمة بعض الأشياء ويقل البعض الآخر وهكذا ، فتحتاج الأمم الى التعاون وتبادل ما بينهم من الخيرات ، ولو أن كل أمة قصرت حياتها على ما عندها من خيرات لا تخمت فى بعض الأنواع ، وأحست

بالجدب والفقر فى البعض الآخر ، ولم تستطع — على العموم — ان تعيش عيشة سعيدة ، فبهذا التبادل تتعاون الأمم على السعادة ، ولذلك كان من السخافة أن تعمد أمة الى إفناء أمة أخرى اذ يكون مثلها مثل تاجر يعمد الى إحراق منزل عميله .

كذلك تتعاون الأمم فى نشر الحضارة ، ولعل أوضح مثل لذلك اليابان ، فقد رأت حاجتها الى اقتباس المدنية الغربية فأرسلت البعثات الى الممالك المختلفة لتدرس نظمها ، وكانت النتيجة أن نَظَّمَتْ بحريتها على نمط البحرية الانجليزية ، وجيشها على النمط الألمانى واقتبست آلاتها من النمط الأمريكى أحيانا والانجليزى أحيانا وهكذا .

وكذلك تتعاون الأمم فى الاختراع والاستكشاف فالانجليز أمدوا العالم بالآلات البخارية ، وأمريكا وصلت الى درجة عظيمة فى استعمال الكهرباء ، وعنها أخذ العالم ، والكيمائيون الألمان اخترعوا كثيرا من عجائب الكيمياء ، والفرنسيون استكشفوا كثيرا من ميكروبات الأمراض ، ونجحوا فى وصف علاجها ، ولما اتجهت الأذهان لترقية الطيران تسابقت الأمم المختلفة ، كل يُدخل عليه نوعا من التحسين ، وكل يريد الفوز والغلبة ، وكل يستفيد مما يُدخله الآخر من الإصلاح .

كذلك الشأن فى العلوم والآداب والفنون ، يظهر فيلسوف كبير فى أمة فتنتفع الأمم الأخرى بعلمه ، وتظهر رواية جميلة أو قطعة موسيقية ممتعة فتُمثَّل أو توقَّع فى الممالك الأخرى ، حتى يكاد يكون العالِم أو الأديب أو الفَنّان عالَميا ، نتاجه للأمم كلها لا لأمته .

وتبادل الآراء نوع من التعاون ، فالأمة ترسل بعثاتها الى الأمة الأخرى تدرس آراءها وتستفيد منها ، كالذى ترى فى المؤتمرات ، تُعْقَد لمختلف الموضوعات ، كمؤتمر التربية ، ومؤتمر التاريخ ، ومؤتمر الجغرافيا ، ونحو ذلك ، يجتمعون من عدّة أمم فيتبادلون الأفكار ، ويستفيد كل مما وصل اليه بحث الآخرين .

وتتعاون الأمم على ما يصيب احداها من الكوارث ، فزلزال مسينا ، وثوران البراكين ، ونحو ذلك يُحل بالأمم أعظم المصائب ، فتتعاون الأمم على درء الشرّ ، وإغاثة المنكوبين ، بما يتبرعون به من مال ورجال .

ومن مظاهر هذا التعاون ما كان بين الحكومات ، فالمعاهدات بين الأمم فى تبادل البريد والتلغرافات ونحو ذلك أثر من آثاره ، وكذلك تعاقد حكومات الأمم المختلفة على منع تجارة الرقيق ، ومحاولتهم الآن التعاون على نقص التسليح ، والعمل على منع الحرب ، وإحلال عصبة الأمم محل تحكيم السلاح ، وان كان ذلك مما لا يزال أملا يُرتجَى .

خلاصـــة

وبعد، فهذه الفضائل وأمثالهـا لايرقى الانسان فى اكتسابها إلا بأمرين :

(الأول) محاسـبة النفس وسؤالها من حين الى حين فى أية فضـيلة ارتقيتُ وفى أيتهـا ضعفتُ، هل أنا اليوم أصـدق منى أمس، والى أية درجة نجحت فى التزامى الصدق، بهذا الامتحان ونحوه يستطيع الانسان أن يتتبع نفسه ويراقبها فى سيرها .

اذا رأيت نفسك تغضب كل يوم فاجتهد أن يمرّ يوم لاتغضب فيه، ثم اجتهـد أن يمرّ يومان فثلاثة، فاذا نجحت فى مرور أيام لم تغضب فيها فتصدّق بصـدقة شكرا لله على تقـدّمك فى النجاح فى كسب هذه الفضيلة، وانتقل الى غيرها وهكذا .

(الثـانى) الإرادة القوية المسيطرة على النفس، فالإرادة قابلة للتمرّن، ومثلها مثل من يبتدئ فى ركوب درّاجة (بسكليت) فهو فى أوّل أمره يختل توازنه، ولا يستطيع أن يسيطر عليها، يعلم ما يريد ولكن لا يستطيع أن يصرّفها كما يريد، وبالتدريج والمرانة تطيعه الدرّاجة، وتنتظم حركته، وتصبح تحت سلطته، ويسير فى سهولته سيرا آليا .

وهذا هو ما ينبغى فى سيطرة الانسان على نفسه، يكون لإرادته من القوّة ما تستطيع به أن توجه النفس الى ما تعتقد من خير وصواب .

* * *

وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الجمعة ٣ صفر سنة ١٣٥٠ (١٩ يونيه سنة ١٩٣١) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية